

بحث الأبعاد الفلسفية في البراجماتية (التداولية) وأفعال الكلام

" نقد المفهوم و التطبيق "

اعداد

د/ محمود أبو المعاطي عكاشة

أستاذ علم اللغة

لقد ظهرت النظرية البراجماتية (أو التداولية) و ربيبها "نظرية أفعال الكلام" لدواع فكرية و عقدية و سياسية و اقتصادية أنتجها الواقع الغربي الذي اتسع للصراع الفكري مثلما اتسع للصراع السياسي منذ عصر النهضة حتى زمننا، و قد صارت الفلسفة العقيدة التي يحتكم إليها بعد انهيار الملكية و الكهنوتية، و قد تمرت العقيدة الجديدة على المعايير العامة و المرجعيات، و أطلقت عنان الأفكار، و تبلورت عقيدة عدمية العقيدة التي تؤله الوجود في العالم و غاياته، و قد خرجت من رحم هذه العقيدة الفلسفات الوضعية و الواقعية و البراجماتية و الوجودية و غيرها من الفلسفات، و استجابت لها مذاهب لغوية و أدبية و بلاغية و نقدية^(١)، و قد ألقت هذه المذاهب بكلاكلها على البحث العربي الوثيد و المنقوت من الدراسات الغربية.

وقد نشأت البراجماتية (التداولية) في كنف العلوم المعرفية، و تفاعلت معها تجاوباً أو تمرداً، فقد رفضت معطيات المدرسة السلوكية اللغوية حينما اتخذ علم النفس في مستهل القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية وجهته السلوكية المتأثرة بفلسفة العقل و الذكاء الاصطناعي، و رأى أن تعلم اللغة يخضع لثنائية (التأثير و الاستجابة)

(١) ارجع إلى: البرجماتية اللسانية، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الآداب، مصر، ص ٦ فما فوقها.

المستقاة من تجارب علماء النفس على الحيوانات التي تمكنوا من تدريبها على بعض الأفعال، و عدلوا بعض سلوكها مستجيبة بتعزيز أو تكييف، و قد بحثت البراجماتية و علوم معرفية أخرى (علم النفس، و اللسانيات ، و فلسفة العقل و الذكاء الاصطناعي، و علوم الأعصاب) كيفية عمل العقل (الدماغ) و اكتساب العقل المعارف و تطويرها و استعمالها اعتماداً على الحالة الذهنية^(٢).

وقد تنازع علم اللسان و البلاغة البرجماتية كلاهما يدعيها لنفسه في البحث العربي، فقد تبناها اللسانيون في السبعينات القرن المنصرم، و رأوا أنها مبحث لساني يدرس كيفية فهم الناس الخطاب و إنتاجهم فعلاً تواصلياً أو فعلاً كلامياً في مقام كلامي محدد، و قد وضعوا لها محاور بحثية ملفقة من فروع بحثية أخرى متأثرين بالدراسات الغربية، وهي: التلفظ ، و أفعال الكلام، و الحجاج (Argumentation)، و الأسلوبية، ونظرية التواصل (Communication)، والمقصدية، و غيرها من المباحث المفتوحة للزيادة، و هي نفسها المحاور التي بحثها البلاغيون التداوليون الذين دمجوا البلاغة في اللغة مسقطين الفروق البحثية، و رأوا أن العلاقة بين البلاغة و علم اللسان علاقة تفاعل مستمرة بلغت الانصهار في بعض المباحث، و عدوا البلاغة السابق التاريخي لعلم النص، فالبلاغة الجديدة المعاصرة تدرس أشكال أسلوبية ترتبط بوظائف الاتصال و وسائل الإقناع الحجاجية بعد أن اجتازت حواجز الموضوعات التقليدية التي عرفت بها تراثياً^(٣).

^(٢) ارجع إلى: التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، أن ريول و جاك موشلار ، ترجمة د. سيف الدين دغوس، د. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة و النشر، ط ٢٠٠٣م، ص ٢٨.

^(٣) ارجع إلى: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة ١٩٩٧م ص ٦، و ١٧، و البلاغة و الأسلوبية، هنريش بليت ترجمة د. محمد العمري، ط ١، الدار البيضاء ١٩٨٩م، ص ١٦.

ولكن البراجماتية لم تشتهر في اللسانيات مثلما اشتهرت في البلاغة عند العرب الذين عدوها هي و الحجاج البلاغة الجديدة (Rhetoric) مضاهئين الحدائين الغربيين، فاستبدلوا بالموضوعات البلاغية و البلاغيين البراجماتية و أتباعها الغربيين، و يرجع سبب تأخرها في علم اللسان أنها تتجاوز محاور اللسان الرئيسة و تفتقد إلى الدقة البحثية التي عُرف بها علم اللسان في العمل بالمنهج و المعايير الثابتة و المحددة، و أن مفاهيمها مبهمة و محاورها مفتوحة، و ليست معينة، و أنها قد اختزلت جهودها في استعمال اللغة في المقام و تعيين القصد الواقعي، وقد رفضها بعض اللسانيين، و عدوها "صندوق قمامة اللسانيات" يرمى فيه كل ما لا يمكن دراسته ضمن موضوعات اللسانيات الأساسية (الأصوات و الأبنية و القواعد و الدلالة)^(٤).

وقد تخير لها الباحثون العرب مسمى "التداولية"^(٥) تحسیناً و تطهيراً لها من آثام "النفعية" النهائية و "الوضعية" المغالية في الحسن و الوجود و "الواقعية" مظاهرة الواقع والتجريب، و لكن معني التداولية لا يشمل أبعادها الفلسفية و اللسانية و البلاغية، فقد اختزلها في التناوب و التداول و المحاور و التواصل، و هي محور بحثي فيها، و مصطلح البراجماتية مستعار من الفلسفة الواقعية التجريبية، فقد نشأ في كنف الفلسفة ثم انتقل إلى علم اللسان و البلاغة، و له أبعاد ثقافية و تاريخية و سياسية و اقتصادية و اجتماعية.

البراجماتية (أو التداولية):

^(٤) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانقونو، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٦/٢٠٠٥، ص ٩٢-٩٣.

^(٥) ارجع إلى: لسان العرب، مادة دول، و القاموس المحيط، مادة: دول.

مذهب حديث في علمي اللسان و البلاغة، و قد شاع بين الباحثين بلفظ "pragmatics"، و المصطلح العلمي لهذا المذهب في الدراسات اللسانية "Linguistic Pragmatics": البراجماتية اللسانية أو التداولية اللسانية، و الأول أصح لدلالاته على مذهبه الغربي . و هو الذى أميل إليه . و قد استخدم جورج يول اللسانى (George Yule) مصطلح "Pragmatics" فى الحقل اللسانى، و قد استخدم البلاغيون "التداولية" (pragmatics)، و ترجمته العربية لا تدل على مفهومه الغربي كاملاً، فالتداول قريب من الحوار و التشاور و التناوب، و هم يريدون استعمال اللغة و وظيفتها الجودية، و قد اخترت مصطلح (pragmatics) للترقة بين المصطلح اللسانى والمصطلح الفلسفى "pragmatism" (البراجماتية و الفوائدية و النفعية و العملية) فى الفلسفة الواقعية^(٦)، و أصل معناه يونانى قديم، و يعنى "العمل"^(٧).

^(٦) الواقعية مذهب فلسفى أنشأه أرسطو الذى رأى أن الواقع الحسى مصدر المعرفة، و هو أيضاً مذهب الوضعية الحديث (Positivism)، و أعيد العمل به فى عصر النهضة الأوربية، وحدث فيه تطوير تأثراً بالنهضة الحديثة، و قد رأى أتباعه أن حقيقة كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية، و قد ترتب على هذه الفكرة ظهور المنهج التجريبى الذى أعاد النظر فى كثير من القضايا على أساس علمى، و قد أثر هذا المنهج فى البنيوية اللسانية والتداولية، و مصطلح البراجماتية مستعار من الفلسفة الواقعية و التجريبية، فقد نشأ فى كنف الفلسفة ثم انتقل إلى علم اللسان، و أول من استخدمه فى اللسان الفيلسوف تشارلز بيرس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ارجع إلى: البراجماتية اللسانية، محمود عكاشة، مكتبة الآداب، مصر، ص ٦ فما بعدها.

^(٧) المصطلحان: "pragmatics" الإنجليزى، و "pragmatique" الفرنسى، من اللاتينى "pragmaticus" الذى استخدم ١٤٤٠م، و هو من الأصل اليونانى "pragma" الذى يعنى: العمل أو الفعل Action، وهو فى اليونانية الحديثة (πραγματολογία: بروماتودجيا) و كلمة "pragmaticos" الإغريقية بمعنى (عملى)، و اشتقت منها الصفة اليونانية "Pragmatikos"، و اشتق الرومان "Progmaticus"، و قصدوا بها "المتمرس" فى المسائل القانونية خاصة، و الكلمة تدل على العمل أو الفعل النشاطى "Action"، و تنسب الموسوعة البريطانية أول استعمال لها إلى المؤرخ الأغرقي بوليبيوس (المتوفى سنة ١١٨ ق.م.)، و قد أطلق هذه التسمية على كتاباته لتعنى آنذاك تعميم "الفائدة" العملية، و لتكون منبراً تعليمياً، و قد استخدمت فى اللاتينية "pragmaticus"، و

والبراجماتية اللسانية مذهب غربي حديث في البحث اللغوي تأثر بالفلسفة الواقعية المادية و الوضعية التجريبية في بحث أعيان الأشياء و ما يتعلق بها، و هدفه القصد اللغوي، و قد تأثر البحث فيه بمناخ صراع التيارات الفلسفية و الدراسات اللغوية الغربية التي تفاعلت معه^(٨).

وقد ترجم المصطلح الفلسفي (Pragmatism) بالذرائعية، و هي ترجمة غير دقيقة، فالذريعة السبب الناتج عن مقدمات مشروعة، و البراجماتية وجودية مطلقة تستهدف المنفعة و الغاية، و قد انتقل هذا المذهب إلى الدراسات اللغوية و البلاغية

اشتقت منها اللغة الإنجليزية جميع المفردات التي ترتبط بكلمة practice ، و أهمها "practical" التي خرجت من رحمها الفلسفة البراجماتية "pragmatism" التي انتشرت في القرن التاسع عشر في أمريكا، و انتقلت منها إلى أوروبا و بعض الدول الأخرى.

و يرجع تاريخ المصطلح في العصر الحديث إلى القرن السابع عشر في مجال الفلسفة التجريبية، و استخدمه الفيلسوف إيمانويل كانت، و أخذ عنه تشارلز بيرس رائد علمي العلامات و البراجماتية اللسانية، و نقله إلى الدراسات اللسانية، و قد تأثر المصطلح في كنف هذه الفلسفة في القرن العشرين، و قد استقر في اللسان على لفظ "pragmatics" في المصطلح الحديث، و بعض العلماء جعلوا مصطلح "pragmatism" خاصاً بحقل الفلسفة العملية أو النفعية، و جعلوا "pragmatics" لعلم اللسان التداولي، و قد استخدم اللسان جورج يول (George Yule) مصطلح "Pragmatics" في الحقل اللساني، و جعله عنوان كتابه، و قد ترجمه دنحا طوبيا كوركيس إلى "الفائداتية" في صدر الستينات، و هو أدق تعبيراً من التداولية، و لفظه القياسي الفوائدية، و يرجع تاريخ دخوله إلى العربية في الفترة التي ترجمت فيها الفلسفة البراجماتية في النصف الأول من القرن العشرين، و قد نشأ المصطلح في كنف الفلسفة التقليدية، ثم انتقل إلى الفلسفة الحديثة على أيدي شارل سندريس بيرس و وليام جيمس، ثم انتقل إلى اللسانيات في أعمال بيرس وشارل موريس، و قد طوره في اللسان أوستين وسيريل و كارناب و لودفيج فجنشتاين. ارجع إلى: المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، المنظمة العربية للتربية والثقافة ، تونس ١٩٨٩م، ص ١١١، و التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، آن روبول و جاك موشلار، ترجمة سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٢٧، ٢٨، و علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، فان دايك، ترجمة الدكتور سعيد بحري، دار القاهرة ، ١ ط ، ٢٠٠١م، ص ٤١٥.

^(٨) ارجع إلى: البراجماتية اللسانية، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الآداب، القاهرة، ص ٣: ١٠.

العربية، و قد اختار المترجمون (Pragmatics) أي: (علم اللسان البراجماتي)، و هو الذي استخدمه الفيلسوف تشارلز موريس، و قد عده فرعاً من السيميائية (Semiotics) التي تعالج العلاقة بين العلامات و مستعملها، و استخدمه تلميذه شارل موريس، و قد طوره في اللسان رودولف كارناب الفيلسوف الألماني الوضعي و لودفيج فتنجشتاين و أوزفالد ديكرو و جون لانجشاو أوستين . صاحب "نظرية الأفعال الإنجازية" التي استخلصها من رحم البراجماتية . و تلميذه جون سيريل، و آخرون، و قد انطلقوا من فكرة تحقيق المعنى معيار التحقق من المعنى من الواقع الحسي، و رفضوا الأقوال التي لا يمكن التحقق منها بالإدراك الحسي أو بالتجربة و الدليل و البرهان منطلقين من الفلسفة الوضعية.

وترجع جذور المذهب البراجماتي إلى الفلسفة البراجماتية الواقعية (Pragmatism)^(٩) التي اجتاحتها الجوانب الفلسفية و المنطقية و تأثرت بالعلوم الطبيعية و التجريبية و تفاعلت مع بعض العلوم الإنسانية (اللغة و الاجتماع و النفس والاتصال)، و قد تولد عن هذا اتجاهات استطاعت أن تؤلف بين مزيج من الدراسات اللسانية التقليدية و العلوم التي تأثرت بها البراجماتية، فتدخلت فيها فروع المعرفة، و صبت فيها روافد متنوعة، فتنوع أسلوب المعالجة البحثية فيها، و تنازعتها العلوم، فظهرت موضوعات بحثية في حقول معرفية تنتسب إليها، و الجامع بينها أنها تتجه

^(٩) الفلسفة الواقعية أو الوضعية (Positivism) إحدى فلسفات العلوم التي ترى أن مجال العلوم الاجتماعية هو مجال العلوم الطبيعية، فالمعرفة الحقيقية معرفة العالم المادي والبيانات المستمدة من التجربة الحسية و المعالجات المنطقية والرياضية لهذه البيانات التي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية و خصائصها و تفاعلها. و قد مرت بثلاث مراحل عند أوجست كومت الفرنسي الاجتماعي (Auguste Comte) (ت ١٨٥٧م): أولاً . المرحلة اللاهوتية. و الثانية . المرحلة الميتافيزيقية. الثالثة . المرحلة الوضعية أو العلمية، و هي الأخيرة التي عرفت بالوضعية التجريبية و المنطقية.

نحو القصد و رد الفعل و الناتج و الأثر العملي، و من ثم تختلف أدواتها و مفاهيمها باختلاف المنحى العلمى، و هي في اللسان تستهدف الاستعمال اللغوي و مقاصده و آثارها في العالم، و هذا التداخل و التنوع سببان رئيسان في عدم وضوح مذهبها التحليلية و معاييرها البحثية، فهي تتسع لمجالات البحث و التحليل، و مازال العمل في تطويرها و معالجة قضاياها مستمرين.

وقد ذكر بعض الباحثين أن الفيلسوف و المنطقي و الرياضى تشارلز ساندز بيرس (Charles Sanders Peirce) (١٨٣٩ : ١٩١٤م) أول من استخدم البراجماتية (Pragmatics)، و الصواب أن "بيرس" عرف مصطلح البراجماتية من دراسة أعمال الفلاسفة التجريبيين^(١٠) و الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانت" (Immanuel Kant) (١٧٢٤ : ١٨٠٤)^(١١) الذى جمع بين معطيات المنهج العقلى و المنهج التجريبي، و هو

^(١٠) ظهر المنهج التجريبي عقب الصراع العلمى مع سلطة الكنيسة ومقاومتها التجديد و الابتكار، و أبرز رواد التجريبية الحديثة: روجر باكون (Bacon Roger) (١٢١٣: ١٢٩٤م)، و جون لوك (١٦٣٢ : ١٧٠٤م) الذى رأى أن وجود الأشياء فى العقل سبقه وجود فى الحس، ودافيد هيوم وكلود برنار الذى رأى أن التجريب أساس معرفة حقيقة الأشياء، واهتم بالجانب العلمى.

^(١١) الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت (Immanuel Kant) (١٧٢٤: ١٨٠٤م) أشهر فلاسفة القرن الثامن عشر، و هو القرن الذى تطورت فيه الفلسفة و شغلت الحياة العامة، و قد انقسمت إلى اتجاهات، و قد نشأ جدال بينها فى نظرية المعرفة (الأبستمولوجى) فى القرن السابع عشر حتى التاسع عشر، و قد ظهر تياران رئيسان، يرى أولهما أن العقل (Reason) مصدر المعرفة، و أنه منتج الأفكار، و رأى الآخر أن الحواس (Sense) مصدر الإدراك الحسى (Perception)، و أشهر الرواد العقلانيين (Rationalists) رينيه ديكارت الفرنسى (René Descartes)، و الألمانى "باروخ سبينوزا" (Spinoza Baruch) و "جوتفريد فيلهلم لينينز" (Gottfried Leibniz Wilhelm)، و قد رأوا أن العقل مصدر المعرفة و أن الاختبار الأساسى لها الاستدلال العقلي القائم على مبادئ الاستنتاج الذاتى أو البديهيات (Axioms)، و أشهر الرواد المؤيدين للإدراك الحسى للمعرفة من التجريبيين الأمريقيين (Empiricists) الإنجليزيان "فرانسيس باكون" (Francis Bacon) و "جون لوك" John Locke)، و قد ذهبوا إلى أن المصدر الرئيس لإدراك المعرفة الحواس، و قد وضع باكون قواعد جديدة للمنهج

يميز بين البراجماتى "pragmatic" و "العملى" "practical"^(١٢)، و قد كان المصطلح مستخدماً قبله فى الفلسفة الواقعية، و قد ذكره بيرس فى مراجعته آراء الفلاسفة، و هذا لا ينفى أنه أول من استخدام (Pragmatics) فى علم اللسان، و هو يتناول علاقة العلامة أو الرمز بالمدلول أو بالشيء أو موضوعات العالم، و قد رأى أن السيميائية تعالج العلاقة بين العلامات و مستعملي هذه العلامات، فالثابت أن بيرس مؤسس "علم العلامات" (أو علم الإشارة، أو علم السيمياء)^(١٣)، و قد تأثر فيه بالبراجماتية، فعرف بـ

العلمى، و أبرزها سلسلة قواعد المنطق الاستقرائى (Inductive logic) كقاعدة لتوليد المعرفة، و رفض رأى العقلانيين الذين رأوا أن إدراك عناصر المعرفة ذاتى الوجود.

و قد تبنى إيمانويل كانت اتجاهاً وسطاً توفيقياً بين العقلانيين و التجريبيين، فدمج العناصر العقلية بالتجريبية، إذ وافق العقلانيين على إمكانية الوصول إلى معرفة دقيقة ثابتة، و أقر أيضاً وجهة النظر التجريبية الإمبريقية التى ترى أن المعرفة إخبارية (Informative) عن بنية التفكير ذاته أكثر من قيامها بتعريف العالم الطبيعى خارج نطاق التفكير، و ميزت بين ثلاثة أنواع من المعرفة: أولها . المعرفة القبلية التحليلية (Analytical priori)، و تتميز بالدقة و الثبات إلا أنها غير كافية للتعليم (Uninformative)؛ لأنها لا توضح إلا ما يتضمنه التعريف (Definition). و ثانيها . المعرفة البعدية المنتجة (Synthetic posteriori)، و هى التى تُنتج معلومات عن العالم الخارجى نتيجة التعلم من الخبرات، و هى عرضة للوقوع فى الخطأ؛ لاعتمادها على الحواس. و ثالثها . المعرفة القبلية المنتجة (Synthetic priori)، و هى تنتج عن الحدس الخالص (Pure intuition)، و تتميز بالدقة و الثبات؛ لأنها تعبر عن الحالات الأساسية التى تتطبع على العقل نتيجة الخبرة بالأشياء، و رأى كانت أن هذا النوع من المعرفة تنتجه الفلسفة و الرياضيات، و قيل إن جورج بيركلى (George Berkeley) البريطانى . الإيرلندى (١٦٨٥: ١٧٥٣م) طرح بعض الأفكار البراجماتية بما اطلع عليه من فلسفة لوك التى خالفه فيها متأثراً بأراء الكنيسة فى العالم، و قد رأى أنه لا يوجد شيء اسمه مادة على الإطلاق، و أن ما يراه البشر و يعدونه عالمهم المادى لا يعدو أن يكون مجرد فكرة فى عقل الله.

^(١٢) العلمى عند كانت ينطبق على القوانين الأخلاقية، و البراجماتى ينطبق على قواعد الفن و أسلوب التناول

للذين يعتمدان على الخبرة. البرجماتية اللسانية، محمود عكاشة، ص ١٠

^(١٣) مصطلح علم العلامة أو الإشارة (أو السيمياء) "Semiotics"، و هما من اللفظة الإغريقية "Semion"، و تعنى: الإشارة أو العلامة، و هنالك اختلاف فى دلالة المصطلح، فبعض العلماء استخدمه بمعنى علم الدلالة الذى

"علم العلامات البراجماتي" (pragmatic semiotics, pragmatique) (sémiotique)^(١٤)، و قد حملت العلامة عنده طابعاً شمولياً متغيراً، و قد عدها كياناً ثلاثياً تتفاعل داخله العناصر التركيبية و الدلالية و البراجماتية في إطار حركة دائمة تسمى "السيميويزيس" (Semiosis)، و قد طوره الفيلسوف الأمريكي تشالز موريس (Charles Morris)^(١٥)؛ فجعله علماً عاماً، و استحدث رموز بعض الأشياء، و وضع

يتناول كل الرموز الدلالية أو الدلائل أو العلامات في قلب الحياة الاجتماعية (الألفاظ و العلامات غير اللفظية)، و المشهور أنه يعنى الرموز اللغوية فقط، و استخدم مصطلح السيميوطيقا (Sémiotique) للدلالة على الإشارات أو العلامات، و استخدم فى الاصطلاح العربى الحديث العلامات أو الإشارات، و هو جائز لمفهوم الاصطلاح بيد أنى أميل إلى لفظ "العلامات"، لمجيئه فى القرآن الكريم بهذا المعنى: (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) [النحل: ١٦]، و بعضهم يستخدم: السيمياء أو السيميائية، و هو من سوم، و ليس من وسم، و قد ورد فى لسان العرب: السومة و السيمة و السيماء و السيمياء: العلامة، و سَوَمَ الفرس: جعل عليه السيمة، و سمة بمعنى علامة بيد أنها من وسم مثل صلة من وصل خلاف اسم من سمو على الراجح، و جمع سمة سمات مثل صلات، و قد شابه اللفظ الإغريقى القديم (Semion) اللفظ العربى فى اللفظ و المعنى، و لعله من الكلمات الأصيلة التى تداولتها اللغات القديمة، و يعنى مصطلح "العلامات": نظام السمة أو الشبكة من العلاقات النظامية المتسلسلة وفق قواعد لغوية متفق عليها في بيئة معينة، و علم العلامة عند بيرس يشمل العلوم الإنسانية و الطبيعية، قال: "ليس باستطاعتى أن أدرس أى شئ فى هذا الكون كالرياضيات، و الأخلاق.. و علم النفس، و علم الصوتيات، و علم الاقتصاد.. إلا على أنه نظام سيميولوجى".

^(١٤) لقد استفادت التداولية من علوم: اللسان و السيمياء و المنطق والفلسفة و علم النفس المعرفى و علم الاجتماع و علم الاتصال، و قد تأثرت فروعها بهذه العلوم، ف "أفعال الكلام" مفهوم تداولى منبثق من مناخ فلسفى عام، و هو تيار "الفلسفة التحليلية" بما احتوته من مناهج و تيارات و قضايا، و مفهوم "نظرية المحادثة" انبثق من فلسفة "بول جرايس Grice"، و "نظرية الملازمة"، و لدت من رحم علم النفس المعرفى، و تعد الفلسفة أكثر تأثيراً فى التداولية من الفروع الأخرى، و روادها الأوائل فلاسفة، و أشهرهم أوستن و سيرل و جرايس. ارجع إلى: مقدمة فى علمى

الدلالة و التخاطب، محمد يونس على، دار الكتاب الجديد، ط٢٠٠٧م، ص ١٣

charles senders Peirce: Ecrits sur le signe. Ed.

(١٥) ارجع إلى:

Seuil, Paris, 1978, p.32

نظام الشفرة، و قد استخدم المصطلح البراجماتى بمفهومه الاصطلاحي الخاص فى الدراسات اللسانية فى حديثه عن علاقة العلامات بمؤولها فى كتابه "أسس نظرية العلامات" الذى نُشر عام ١٩٣٨م^(١٦).

وقد ظهرت البرجماتية اللسانية نتيجة أبحاث فلسفة اللغة و المنطق الرمزي التي قدمها أقطاب مدرسة فيينا: جلوتوب فريجه (G.Frege) و رودولف كارناب (R.Carnap) و برتراند راسل (B.Russel) و لودفيج فيتجينشتاين (L.Wittgenstein) و غيرهم حول الدلالة و العلاقات الكلامية و المعنى و المرجع و السياق، و صارت هذه الأبحاث أرضية خصبة لانطلاق نظرية لسانية تفاعلت مع مفاهيم بيرسو تشارل موريس (Ch.Morris)، فظهرت معالم المذهب اللساني.

وقد عرفت البراجماتية اللسانية بعلم السياق، و هو أربعة: أولها . السياق الظرفي. والثاني . السياق الوضعي الذي يتوافق مع المحيط الثقافي للخطاب. و الثالث . السياق التفاعلي في التواصل، و هو يحدد نوع التواصل و عناصره. و الرابع . السياق المعرفي(الخلفيات و المراجع و العادات و الأعراف بين المتواصلين).

ولقد صارت فرعاً من اللسانيات الحديثة يدرس ما يتعلق بالتواصل اللغوي في السياق و المقام باعتبارهما شرطين أساسيين في الكيفية التي يحصل بها التواصل و إنتاج الدلالة بين مستعملي اللغة في ضوء علاقاتهم التخاطبية تعبيراً و توجيهاً، حيث

(١٦) ارجع إلى: المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت،

ص٢٦، وارجع إلى: الاتجاه التداولي فى البحث اللغوى المعاصر، الدكتور محمود نحلة، ضمن الكتاب الخاص

بعبء ميلاد الدكتور عثمان موافى الستين،"فى اللغة و الأدب" دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٣م، ص١٦٧

Morris .C.W (1938) foundations of the theory of singns,chicago university Press ,

Chicago

إن التواصل اللغوي لا يستند فقط إلى الكفاءة اللغوية، بل إلى توفر الشروط غير اللغوية التي تتدخل في تحديد الأداء اللغوي.

وموضوع البحث فيها: دراسة استعمال اللغة و دلالتها في ضوء العلاقة بين مستعملها و أفعال الكلام و الاقتضاء و الاستلزام التخاطبي، و ذلك بالاشتراك مع مجالات فلسفة اللغة و منطق الحجاج و تحليل الخطاب، و تدرس البراجماتية أيضاً رد الفعل أو الأثر، أو ما تحدثه اللغة و ما يترتب على الفعل اللغوي^(١٧)، و هو الجانب الذي تتداخل فيه البراجماتية مع نظرية "أحداث الكلام" التي سيأتي الحديث عنها.

وقد اختلف الباحثون في تحديد مجالات البحث فيها، فقد رأى "جرين" (Green) (١٩٨٩م) و "بليكمور" (Blikmore) (١٩٩٠م) أنها تهتم بدراسة اللغة الطبيعية أو لغة الخطاب اليومي المباشر، و رأى "أ.م. ديلر" و "ف. ريكاناتي" أنها تدرس استعمال اللغة في الخطاب و الكشف عن المقدرة الخطابية^(١٨)، و أنها تدرس معانى القول في المقامات التخاطبية^(١٩)، فهي تهتم باللغة في مقام الخطاب، و تدرس السمات الخاصة به قصد تأكيد طابعه التخاطبي، فهي تعنى بدراسة استخدام اللغة في الخطاب و معرفة السمات المميزة التي تؤسس وجهته الخطابية في صلب اللغة، و رأى "فرانسواز ريكاناتي" أن البراجماتية فرع من استعمال اللغة في الخطاب^(٢٠)، و عدها "فان جاك" تخصصاً

^(١٧) لقد تناولت المذهب البراجماتي (التداولي) في كتيبي البراجماتية اللسانية و علم اللسان العربي و تحليل الخطاب و مناهج البحث العلمي و مذهب.

١٨) المقاربة التداولية، أرمينكو، ص ٨. و ارجع إلى: التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥، ص ١٨

١٩) مقدمة في علمي الدلالة و التخاطب، يونس، ص ١٣

٢٠) ارجع إلى: المذاهب الفكرية المعاصرة، سماح رافع، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص ٤٩. ٥٢. و التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، ص ٥٠.

يتناول اللغة على أنها ظاهرة خطابية و تبليغية و اجتماعية، و عد دراسة استعمال اللغة من مقدمة البراجماتية، و هو ما أكده "فارسشيرن" (Werschueeren) (١٩٨٧م) الذي رأى أن البراجماتية يجب أن تضع دراسة استعمال اللغة بكل جوانبه في مقدمة بحثها^(٢١)، و رأى "رودوف كارناب" أن البراجماتية قاعدة للسانيات^(٢٢).

ويتبين من هذه الآراء أن البراجماتية لم تكف بدراسة اللغة لذاتها كما فعلت البنيوية، بل تجاوزتها إلى دراسة "استعمال اللغة"، و استدعت عناصر أخرى مرتبطة بهذا الاستعمال و تابعة له، و هي: المتكلم و المتلقى و الكلام و اللفظ و المقام و التواصل و الغرض، و تدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه و أساليب استخدام العلامات اللغوية في "الخطاب"، و السياقات والأنماط المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها، و تبحث عوامل نجاح التواصل فيه، و تدرس استعمال اللغة في الخطاب و توظيفها في الأنماط التفاعلية و كيفية استخدام الناس الأدلة اللغوية في خطاباتهم، و كيفية تأويلها، و العلاقة بين مستخدمى اللغة (المتكلم و المتلقى) و علاقتهما بالسياق التواصلى، و العلاقات التأثيرية بينهما فى ضوء ما ينتجانه من حوار، فبعض الأشكال اللسانية لا يتحدد معناها إلا من خلال استعمالها و معرفة القصد منها؛ و من ثم تدرس البراجماتية اللغة الخطابية و التواصلية^(٢٣)، و تعنى بفهم مستعملى اللغة هذه الأنماط

(٢١) التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ص ٤١

(٢٢) البراجماتية "La pragmatique"، فان. ف. جاك، ضمن الموسوعة العالمية، المدونة رقم ١٥/١٩٨٥م.

(٢٣) أرجع إلى: التداولية عند العلماء العرب، ص ٢٠، و التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار اللائقية، ص ٤١. و مقدمة فى علمى الدلالة و التخاطب، محمد محمد يونس على، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص ١٣، و المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومى، بيروت، ص ٢٦، و علم التخاطب الإسلامى، محمد محمد يونس على، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص ١٤.

الخطابية، و تهتم بمنشئ الكلام (الخطيب، المتكلم) و السياق اللغوى و المقام الخارجى، فهي تتجاوز البنية الخطابية السطحية إلى تقنية التواصل و السياق و القصد، وتدرس كيفية إنتاج المتكلم فعلاً تواصلياً أو فعلاً كلامياً فى إطار موقف كلامى محدد وفهمه أو تفسيره، و هنا يتجلى دور نظرية الاتصال فى دراسة طرفى التواصل و قنواته وسياقه اللغوى و مقامه، فتتداخل معها فى هذه العناصر المساعدة.

وتتجاوز البراجماتية حيز الوضع الأصلى المباشر فى بعض السياقات التى لا يقصد فيها المتكلم الدلالة المباشرة من الكلام، و تستهدف المعنى المقامى غير المباشر، و هذه المعانى لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال فهم اللغة فى مقام الاستعمال الذى يحدد قصد المتكلمين، فالوضع اللغوى وحده لا يكفى لمعرفة هذا المعنى المقامى^(٢٤)، فبعض المعانى الثانوية للتعبير كالسخرية و الاستتكار و المدح و

(٢٤) الوضع اللغوى أصل وضع اللفظ المصطلح عليه، و يسمى المعنى المعجمى و الحرفى و السطحى، و الصواب معنى اللفظ العام، و المعنى السياقى الذى يرتبط بالسياق الخارجى ، و يفهم فى ضوء علاقة المتكلم بالمتلقى وعلاقتها بموضوع الحدث، مثل عبارة: السلام عليكم، المعنى الأصلى: التحية، و بعض المترجمين غير الواعين بالتعبير العربى، يسمون هذه المعنى المباشر من السياق اللغوى المعنى السطحى و الدلالة السطحية، و ليس بمعنى سطحى فى العربية بل أصلى، و يرتبط به المعنى المجازى أو الثانوى، أو معنى المعنى، وهذه العبارة قد تؤدى معانى أخرى ترتبط بالسياق الخارجى، مثل: الوداع و الاستئذان و التهكم والاستحسان، وهى معانى يكتسبها التعبير من طبيعة السياق الخارجى و ثقافة المجتمع والعلاقة بين طرفى الاتصال، و يبقى معنى السياق اللغوى الأصل، وإطلاق المعنى الحرفى عليه غير صحيح، فالمعنى الحرفى يجافى معنى السياق اللغوى الذى يرتبط بعلاقة الكلمة بما جاورها فى التركيب و وظيفتها فيه، فكلية "السلام" يختلف معناها باختلاف السياق اللغوى مثل: السلام عليكم، السلام بين الشعوب، (لهم دار السلام)، مبادرة السلام (المصالحة)، مدينة السلام من أحياء القاهرة.

الذم تستفاد من علاقة الخطاب و المتكلم بالمقام الخارجى^(٢٥)، و تدرس كذلك الأساليب الأدبية الخاصة التى يوظفها الكاتب فى عمله الإبداعى و وجوه تأويلها و القصد منها. وتقوم البراجماتية على ثلاثة عناصر:

أولهما . العنصر الذاتى الذى يتمثل فى التعبير عن معتقدات المتكلم و مقاصده و اهتماماته و رغباته.

والثانى . العنصر الموضوعى الذى يتمثل فى الوقائع الخارجية، و منها الظروف الزمانية و المكانية.

والثالث . العنصر الذى يدل على المعرفة المشتركة بين المتكلم و المخاطب.

وهذه العناصر تفسر الأقوال المستعملة بمساعدة المحيط الخارجى الذى تم فيه الخطاب الصادر من المتكلم.

وقد ميزت البراجماتية اللسانية بين معنيين فى التعبير اللفظى (الفعل التواصلى اللفظى): الأول . معنى الجملة الإخبارى. و الآخر . القصد التواصلى أو غرض المتكلم، وهذا من خلال العناية بآثار الاستعمال و أثر السياقات المختلفة فى المعنى، و هو موضوع البراجماتية اللسانية، و يتبين من هذا الفرق بين موضوع البحث فيها و موضوع البحث فى علم الدلالة الذى يبحث فى المعنى اللفظى.

القصد فى البراجماتية:

يعد القصد الواقعي المستفاد من استعمال اللغة هدف البراجماتية الرئيس، و هو فى مقدمة بحثها أيضاً لتأثيرها بالفلسفة العملية التى تستهدف الفائدة، و هذا يفهم من تحليل

(٢٥) مثال هذا قوله تعالى: (إنك لأنت الحليم الرشيد) [هود : ٨٧] أى: عند نفسك بزعمك، و مثله فى صفة أبى جهل: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) [الدخان: ٤٩] أى: عند نفسك بزعمك، لا يراد ظاهر معناه المباشر بل معنى سياقى فى ضوء العلاقة بين المتكلمين و المخاطب، وهو معنى السخرية، و هذا من المفارقات فالمراد خلاف المعنى المباشر.

ما يقصده المتكلمون من خلال ما يستخدمونه من تعابير في سياقها اللغوي و مقامها، فالمقصود دراسة المعنى الذى يتضمن قصد المتكلم، و ليس المعنى التركيبى (النصى) ومعانيه الوضعية و التركيبية، و تعنى البرجماتية باستنباط ما يقصده المتكلمون من وراء أقوالهم فى مقاماتها، و بحثت أثر المقام فيما يقال فى ضوء معرفة أحوال الأشخاص الذين يخاطبونهم و مكان الخطاب و زمانه و ظروف إنتاجه، و لهذا تتداخل مع علم اللغة الاجتماعى فى تبين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين فى الحديث وموضوعه و مرتبة كل من المتكلم و السامع و نوعهما، و أثر السياق غير اللغوي فى اختيار السمات اللغوية و تنوعاتها، و تتداخل مع علم اللغة النفسى الذى يبحث قدرات المشاركين التى تؤثر فى أدائهم مثل: الانتباه و الذاكرة و الشخصية، و تتداخل مع تحليل الخطاب تداخلاً عميقاً فى الاهتمام بتحليل الحوار و فى توزيع المعلومات فى جمل أو نصوص ، و فى العناصر الإشارية، و المبادئ الحوارية، و هى العوامل الموصلة إلى فهم القصد.

ولقد بدأ بحث القصد فى العصور الوسطى بيد أنه كان ذا طابع فلسفى، و يراد به الفعل الذى يتجه فيه العقل إلى الموضوع ليدركه، و قد اهتم الباحثون بالظواهرية اللغوية (Phenomenal language) لمعرفة القصد، و قد رأى فرانز برنتانو Franz (Brentano) (١٨٣٨ : ١٩١٧م) أنه يحتاج مزيد بحث، فأقنع تلميذه إدmond هوسرل (١٨٥٦- ١٩٣٨م) ببحثه بحثاً جديداً بعد أن أصبح القصد هدف البرجماتية الرئيس، فطوره فى نظريته الفينومولوجية^(٢٦)، و قد رأى أن القصد يتحقق من خاصية الشعور

^(٢٦) ألفينومينولوجيا (Phenomenologie) : لفظ أصله لاتينى، و ترجمته "علم الظواهر، و يجوز: "الظواهرية"، و لا أقول الظاهرية؛ لئلا تلتبس بمذهب ابن حزم إمام الظاهرية، ولها ترجمات أخرى منها: "الظاهرانية"، و هو شاذ لغة، فجمع الظاهر ظواهر، و استخدم اللفظ الدخيل "الفينو مينو لوجيا"، و يقصد به: العلم الذى يكتفى بدراسة الظواهر الواضحة فى الشعور دراسة وصفية مع تحليل الشعور و كشف حقيقة أفعال "الإدراك و مكوناتها"، و

الحقيقي الذي يتجه نحو شيء، و لا يستطيع أن يفصح عن نفسه إلا بعد أن يكون مقصده شيئاً محسوساً، فيستخلص معناه من الواقع، و يعبر عنه بكلام ذي دلالة دقيقة، فالقصد عنده سابق الكلام^(٢٧)، و قد تأثر هوسرل في تعيين القصد بـ "برنتانو"

ترجع جذوره إلى فلسفة توما الاكويني (١٢٢٥: ١٢٧٤م) الذي تأثر بفقهاء الأندلس و فلاسفتها، و قد تناول مفهومه في كتابه "حول الوجود و الماهية"، و قد رأى فيه أن وجود الشيء خارج العقل يختلف عن وجوده داخل العقل، و استخدمه اللاهوتي الألماني فردريك أويتنجر (١٧٠٢: ١٧٨٢م) في وصف النظام الإلهي للعلاقات بين ما هو إلهي و ما هو إنساني؛ للتعبير عن القدرة الإلهية، و استخدمه الفيلسوف الألماني لامبرت (١٧٢٨-١٧٧٧م) في وصف المعطيات المباشرة للتجربة، و استخدمه كانت في أواخر القرن الثامن عشر، و هو يفرق بين ظاهر الشيء و باطنه، و ميز بين المعرفة البشرية و بين الشيء في ذاته، فرأى أن المعرفة البشرية تقتصر على الظاهر دون الشيء في ذاته، و قد شاع المصطلح في القرن الثامن عشر للدلالة على المظاهر الجوهرية للمعرفة التجريبية و خصوصاً المعطيات الحسية، و استخدمه بعد ذلك "هيجل" في أوائل القرن التاسع عشر، و أطلقه على "علم ظواهر الروح" الذي تبني فيه رؤية مثالية في وصف تجليات الروح عبر التاريخ (المؤسسات الدينية و الاجتماعية و السياسية)، و سجل هذا في كتابه "ظواهر الروح" الصادر عام ١٨٠٧م، و استخدمه عالم النفس النمساوي فرانز برنتانو (١٨٣٧-١٩١٧م)، و ورأى أنه في حاجة إلى بحث، فنصح تلميذه الألماني أدmond هوسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٨)، فدرسه و توسع فيه، و جعله اسم فلسفته التي تبنّاها في أوائل القرن العشرين، و اقترن "فينو مينو لوجيا" به لشهرته في هذا المجال، وقد اقتفت هذه الفلسفة في بدء ظهورها خطوات التحليل الرياضي والوصف العلمي، و لكنها انحرفت عن هذا متأثرة بالفكر التقليدي، ولكن هوسرل استطاع أن يحول الفلسفة من مجرد مذاهب نظرية متناقضة و أبنية ميتافيزيقية خاوية إلى علم يقيني دقيق يوصل إلى حقائق يقينية تكون أساساً لكل العلوم الأخرى الممكنة، و ذلك مثلما أراد "كانت" من قبل تأسيس الميتافيزيقيا علماً صحيحاً مستقلاً، و حدد هوسرل منجاً جديداً للعلم الجديد "الفينو مينو لوجيا" يتفق مع طبيعته وأهدافه، و يجمع بين التحليل الرياضي و الوصف العلمي برؤية جديدة. ارجع إلى: نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية و المطلقية، ميمون ربيع، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ١٩٨٠م، ص ١٣١

^{٢٧} (القصد: الهدف المضمّر القائم . في رؤية هوسرل . على وعى المتكلم و العالم الخارجي معاً، و يعد برنتانو أول من قدم فكرة القصد بمفهومها الفلسفي الحديث، و قد رأى أنها تحتاج بحثاً، فنصح تلميذه هوسرل بمواصلة بحثه فيها، فقدّمها في شكلها النظري الأخير، فاستطاع أن يختار منهاجاً وسطاً بين المادية و المثالية، فعرف اتجاهه بالاتجاه المحايد، و قد ركز هوسرل في العملية المعرفية على القصد باعتباره موجه عملية الإدراك، و جعل

الذي وضع "علم النفس القصدى"^(٢٨)، و قد درسه هوسرل على يديه و تأثر به، و قد رأى برنتانو أن حالات العقل الرئيسة ينبغي أن توصف في ضوء القصد نحو الأشياء؛ لأن جميع الحالات حالات عن أشياء سواء أكانت حقيقية أم غير حقيقية، و أن حالات العقل المختلفة حالات عن موضوعاتها بأشكال متباينة، و يتعين القصد بضوابط وصفية يعرف بها^(٢٩).

هوسرل كل ما هو موجود موضوع التأمل الفينومينولوجي، و رأى أن الوعي الخالص يلزم بالضرورة ماهية الموجود، ذلك أن الموضوع لا يعرف تعالى إلا من خلال وعيه، و هو يستمد معرفته التجربة والوعي الخالص في ذهن صاحبه، و هذا الوعي الخالص يصبح مطلب الذات العارفة التي تريد أن تصل إلى ماهية الموجود، و يستحضر الوعي الخالص داخل بؤرة الشعور عند هوسرل في وجود القصد، و هو يتكون عند هوسرل من سلسلة التجارب التي مرت بها الذات العارفة من خلال لحظة فلسفية تحدث نتيجة شعور بموضوع معين، و يتحقق القصد تحت تأثير الرغبة في معرفة الموضوع، قال هوسرل: "إن الشعور بشيء لا يعنى أن نفرغ الشعور من هذا الشيء بل أن نجعله يتجه إليه حيث إن كل الظواهر لها تكوينها القصدى الذى يوجه الإدراك نحوها تلقائياً". ارجع إلى: كير كارد رائد الوجودية، عبدالفتاح إمام، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٥.

^(٢٨) لقد أقام هوسرل فلسفته على أساس الشعور المجرد، لكونه المجال المحايد للمعرفة اليقينية، و لاتصافه بصفة القصد (Intentionalite)، و هذه الصفة جوهرية وأساسية في الفلسفة الظواهرية، فمن خصائص الشعور أنه يتجه إلى الأشياء التي تواجهه من أجل أن يدركها، فيحولها إلى (ظواهر ذات طبيعة ثابتة)، لتكون الأساس الذى تبدأ منه كل معرفة يقينية، و قد استعار هوسرل مصطلح "القصد الشعورى" من أستاذه الفيلسوف عالم النفس النمساوى فرانز برنتانو (١٨٣٨ : ١٩١٦م) الذى الذى استخدمه فى كتابه "كشف النفس"، و قد حاول برنتانو وضع تخطيط منطقي للتصورات الذهنية؛ لتكون تمهيداً لعلم النفس التجريبي، و قد فسر هوسرل الوجود على أنه ظاهرة، و قد كان يفسر فى صيغة جوهر ذى محمولات متعددة، فنظر إليه على أنه ظاهرة، و ظاهر الوجود هنا ليس مقابل باطنه المستتر، فالوجود نفسه يمثل هذا الظهور، و لا يتضمن وجوداً آخر خلفه (ما وراء الطبيعة)، و ينبغي دراسته من خلال سلسلة تجلياته التى تظهر لنا.

^(٢٩) لقد حدد هوسرل الوصف شروطاً للوصف الصحيح: أولها . تحديد الكيفية التى تتم بها عملية إدراك المعنى و ماهية الموضوع من خلال إسقاط الإدراكات التى تنتج إلى ما لا إدراك. و ثانيها . اليقين الذى يودى إلى إثبات الموضوع على النحو الذى أدركه عليه أو من خلال إدراك الاعتقاد. و ثالثها . تحديد معنى الإدراك وماهيته للوصول إلى ماهية الموضوع، و مذهب الفينومينولوجية يقصد التمكين لفكرة الماهية، و وضع ثلاثة شروط لتحديد

وقد تبنى هوسرل رؤية تقوم على أساس الشعور المجرد؛ لكونه المجال المحايد للمعرفة اليقينية، و لارتباط القصد (Intention) به، و قد رأى أن القصد العنصر الجوهرى و الأساس فى الفلسفة الظاهرية من بين ثلاثة أسس تقوم عليها الظاهرية، و هى: المعنى، و القصد، و الحصر (تحديد الواقع و الوعى الذاتى تجاه الموضوع فى اللحظة التى يتعالى فيها الشعور)^(٣٠)، و قد رفض هوسرل التفسير الفينومينولوجى المغالى فى الظواهر دون المعاني و المقاصد و البحث الماهوى و الاختزال، و دعا إلى إقصاء القارئ أحكامه السابقة فى مواجهة موضوع النص؛ لئلا تصرفه عن فهم النص. و قد بحث هوسرل القصد فى العمل الأدبى، و رأى أن موضوع النص يدرس لذاته مستقلاً عن أحواله و ظواهره دراسة وجودية (Ontology) فى وعى المؤلف، و قد

ماهية الموضوع: الأول . تحديد قضية أو حكم يصلح أن يكون موضوع الإدراك. الثانى . الشك فى ماهية الموضوع الأولى، و ذلك فى حقيقة صورته و غايته و صدقه. الثالث . إعادة بناء الإدراك الجديد، لإثبات صواب الموضوع أو خطئه. وهذه المراحل الثلاث تعطى للتجريد بعداً فينومينولوجياً إذا ما استطاع العقل أن يميز بين المعنى المنطقى و المعنى الفينومينولوجى.

(٣٠) الحصر: تحديد الواقع و الوعى الذاتى تجاه الموضوع فى اللحظة التى يتعالى فيها الشعور، و تتبع عملية الحصر إقصاء ما وقع خارج الحصر، و عملية الحصر أو التعالى تقوم على إقصاء الحكم القبلى أو الجاهز عن الموضوع، و هى الخلفية التى يعكسها على الموضوع. و تحديد ماهية الموضوع (حصر الماهية)، و هذا يتطلب إقصاء الخلفية السابقة و فرضيات النظريات الميتافيزيقية، و هى فى النهاية تجتهد فى التوفيق بين الواقعية و العقلانية المثالية. و قد رفض هوسرل الشك الديكارتى منهجاً لمعرفة ماهية الموضوع، و رأى أن الشك نفسه عملية يصدر من خلالها حكم على الموضوع المقصود فى ذاته، و من ثم لا يمكن أن يحقق معرفة بإصدار حكم على حكم، و المذهب الفينومينولوجى يرفض الأحكام التى لا يتجلى فيها الوعى الخالص، فالإدراك المرتبط بالوعى الخالص و المدعم بالقصد يقوم بالحصر و الإقصاء، فالحكم يكون فى لحظة تجلى الوعى الخالص، و قد أعطى هوسرل للذات العارفة لحظة مثالية لأجل تأمل الموضوع تأملاً وصفيّاً جوهريّاً فى ضوء شروط إدراك الموضوع، و ذلك بربطه بالأحوال النفسية ذات التى تأثر بأحوالها الشعورية، و المنهج الفينومينولوجى لا يهتم بالحكم فى ذاته، بل يهتم بطريقة التأمل التى توصل بها إلى ماهية الموضوع. ارجع إلى: تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوروبا، بوخينسكى، ترجمة عبد الكريم الوافى، مكتبة الفرجانى، ليبيا، ص ٢١٨

حصل المؤلف موضوعه و الصورة التي تشكلت في ذهنه عن الواقع و طبيعته و دلالاته المتعددة من خلال الخبرة الحياتية المباشرة، و يتوجه المؤلف عن قصد لإعطاء شكل لذلك الموضوع الوجودي من خلال اللغة و الشكل الفني للعمل الأدبي، و يعد العمل الأدبي بهذا تجسيداً جمالياً لصورة الحياة في وعي المؤلف، فالنص الأدبي عنده تجسيد ظواهر العالم على ما تجلت عليه في وعي المؤلف مخالفاً بهذا مذهب موت المؤلف، و القصد عنده: قصد المؤلف الكامن في وعيه، و يتحقق من الوحدة الموضوعية التي تضيئ الانسجام و الترابط على أجزائه، فالمعنى لا يفهم من محصلة تشابك العلاقات التركيبية و الدلالية للنص، بل يفهم عندما يكون وجوداً منجزاً و متعالياً على الوحدات النصية، و مكانه وعي المؤلف، و علقته قصد المؤلف، و يصبح معنى النص: الموضوع الذهني الذي يحمله المؤلف في عقله أو يقصده وقت الكتابة حقيقة عندما يتطابق مع عالمه الخارجي أو يواقعه، و يصبح عقل المؤلف الجوهر الموحد لكل عناصر النص و كل مستوياته الدلالية و الأسلوبية و البلاغية و الشعرية^(٣١).

وتتحقق القراءة الصحيحة عنده بإعادة القارئ تشكيل التجربة الشعرية للمؤلف التي يكشف عنها النص، و يشترط لها تعليق جميع الأحكام السابقة و الافتراضات القبلية عند القارئ و التقييم و تصنيف الأفكار؛ لئلا تحجبه عن مقاصد المؤلف، و أن يحاول القارئ أن يفهم النص من خلال معطياته من أجل تحقيق فهم موضوعي للمعنى النصي الذي يتطابق مع قصد مؤلفه، و تتم القراءة هنا من خلال انفتاح الذات على الآخر و محاولة فهمه ذاتاً غيرية، و ليس صورة انعكاسية للذات فقط، و تتحقق هذه المرحلة بافتعال نوع من التواصل بين الذوات في سياق متعالٍ؛ ليكتشف مركبات الوعي

^(٣١) من فلسفات التأويل الى نظريات القراءة، عبد الكريم شرفي، الدار العربية للعلوم، ناشرون ومنشورات

الاختلاف، ط ١ / ٢٠٠٧م، ص ١٠٥، ١٠٤.

ذاته، و الظواهر نفسها، و تتجلى الروح المتعالية في فهم القصد عندما يبتعد القارئ عن التجريبية و الروح النفسية (Psychology) التي تفسر الأحداث التاريخية و تتوقف عند العمليات العقلية الخالصة.

وقد درس "أربك دونالد هيرش" الناقد الأمريكي (و: ١٩٢٨م) القصد، و هو من أتباع التيار النفسي (Psychology) في النقد و القراءة، و هو تيار قام على أفكار شلاير ماخر و دلثاي و هوسرل، و لكن هيرش دافع عن مفهوم إعادة البناء النفسي للتجربة الشعورية للمؤلف هدفاً و غاية للعملية الهرمنيوطيقية (الاستبطانية أو التأويلية)، ورفض مسلمات ما يعرف بـ "النقد الجديد الأمريكي" الذي قام به "ومسات" (W. K. Wimsatt) و "بيردسلي" (Monro Beardsley) حول القصد، و قد أطلقا على دراستهما "المغالطة القصدية" (Intentional Fallacy)، و قد ذهبوا إلى أن قصد القائل قد يغيب عن المتلقي، فيخالفه في التفسير و يرى غيره، و قد خالفهما هيرش، و رأى أن قصد المؤلف يحدد المعنى النصي، و قال: "إن التحقق من النص يعني الإقرار بأن المؤلف ربما قصد ما نظن أنه هو معنى النص، لا غيره، و تتمثل مهمة المؤول الرئيسة في أن يعيد هو نفسه إنتاج منطق المؤلف و اتجاهاته و معطياته الثقافية ثانية"^(٣٢).

وقد رأى "هيرش" أن "النص يعني ما قصده المؤلف"، و أن معناه اللفظي قد يكون واضحاً، و قد يكون غامضاً و يحتمل وجوهاً متعددة، و أن النص يقبل أن يعيد القارئ إنتاجه، و أنه يتضمن قصداً أو معنى واحداً؛ لأنه الأصل الذي عمد إليه المؤلف، و حاول بلوغه و تقديمه إلينا، و أنه يمكن الاستعانة بالسياق الخارجي؛ لتعيين القصد، و

^(٣٢) الحلقة النقدية، الأدب والتأريخ و الهرمنيوطيقا الفلسفية، ديفيد كوزنز هوى، ترجمة خالدة حامد، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد ٢٠٠٧م، ص ٢٦، ٢٧.

لدفع الاحتمال الذي يفهم من قطع النص عن سياقه، فالرجوع إلى المؤلف أو إلى الوثائق التي تركها حول نصّه أو إلى عصره و الظروف التي أحاطت بنشأة المؤلف و ثقافته يسد باب الاحتمال و القراءات الجديدة، و لا يحقق الوصول إلى المعنى المقصود، و قد خالف هيرش الذين يكتفون بالنص وحده مقطوعاً عن مؤلفه و مقامه في تحصيل قصد المؤلف، و رأى أن القارئ قد لا يستطيع الوصول إلى المؤلف أو شيء عنه، و قد لا تتوفر لديه الوثائق الكافية لمعرفة مناسبة النصّ، و ليس لديه إلا النص، و هو الحقيقة الثابتة التي يستطيع القارئ دراستها من خلال تركيبه اللغوي و القرائن الموجودة في داخله، و أن قراءة المتلقي هذا النص المبتور عن عالمه تختلف عن غيره، و بعضها يتعارض في تفسير نص واحد، و رأى أن هذا التعدد و التعارض دليلاً "الفوضي" في هذا الاتجاه الذي يكتفي في التفسير بالنص و يعزله عن سياقه، و انتقد التيار المتطرف الذي دعا إلى موت المؤلف (إقصائه عن التفسير، و اكتفاء بمعطيات النص اللفظية)، و قد خالفهم آخرون، ورأوا أن النص هو المؤلف، و لم يتورط المفسرون العرب المتقدمون في هذا الجدل الفلسفي، فقد عالجوا النصوص معالجة كلية في ضوء سياقيها اللغوي و مقامها الخارجي و تحري قصد قائلها بالقرائن المصلة إليه، فهي تعبير عن أغراض قائلها.

و قد ذهب مارتن هايدجر (Martin Heidegger) الفيلسوف الألماني (١٨٨٩: ١٩٧٦م) إلى أن ما قبل الإدراك الانعكاسي و المعرفة السابقة ضروريان في عملية الفهم، و قد تبني دمج فعل التفسير بفلسفة ظاهرية وجودية تركز على الوجود أو ما هو كائن في هذا العالم، و ربط عملية الفهم بنوع من الحركة الدائرية المتواصلة بين الفهم و المعرفة القبلية (الإدراك الانعكاسي)، و هو الوعي بالشئ كما هو معطى للوعي، فمعرفةنا بالموضوع لا يمكن أن تتشكل معزولة عن خبرتنا الحياتية و طبيعة وجودنا

التاريخي و معرفتنا القبلية، و أن الوعي يتحرك بدينامية بين ما يعرفه مسبقاً و بين ما يعرفه من دلالات و معانى جديدة يطرحها الموضوع المعطى، و يتم هذا ضمن سياق تاريخي له شروطه، و تصبح محصلة هذه الدائرة النقدية التأويلية المعرفة النظرية التي تأتى هنا للكشف و الإثارة، و ليست معرفة المعنى المنجز التام، و قد خالف بهذا هوسرل في رفضه التحول عن معطيات النص إلى معارف قبلية خارجية. وقد أيد جدامير مفهوم هايدجر "ما قبل الإدراك الانعكاسي" و أقواله في التصورات السابقة، فهو يؤكد في كتابه "فلسفة التأويل" أن هايدجر اقترح وصفاً فينومينولوجياً دقيقاً و صحيحاً عندما كشف عن بنية الاستحضار السابق للفهم على أنها نشاط فعلى و عملى فى القراءة المفترضة لما هو موجود أمام أعيننا^(٣٢).

وقد رأى أن الحالة الزمنية المؤقتة (Temporality) و الحالة التاريخية (Historicity) موقف عقلى فى حاضر المرء الذى ينظر إلى الماضى و يستشرف المستقبل) جزء لا يتجزأ من وجود كل كائن فرد، و رأى أنه لكى نفهم شيئاً ما يقتضى أن يتضمن التفسير التجربة الذاتية لمؤلفه، فقراءة النص وحده لا تكفى فى الفهم، و أن اللغة مثلها مثل الزمنية المؤقتة تتخلل كل جوانب التجربة و تشملها، و رأى أن القارئ يعكس على النص فهماً مسبقاً (Pre-Understanding)، و هذا الفهم السابق يتألف ويتشكل فى النص متزامناً مع زمنية القارئ الشخصية و آفاقه، فالمبدع الفاعل (منتج النص) لا ينبغى له أن يحاول تحليل النص، أو أن يقوم بتقطيع أوصاله على أنه

^(٣٢) ارجع إلى: فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف، هانز جورج جدامير، ترجمة محمد شوقى الزين، الدار العربية للعلوم، ناشرون ومنشورات الاختلاف والمركز الثقافى العربى، ط ٢، ٢٠٠٦، ص ١٢٥، و فعل القراءة، نظرية جالية التجاوب، فولغانغ إيرز، ترجمة د. حميد لحدانى و د. الجلالى الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، ط ١ / ١٩٩٥م، ص ١٣، ١٤

مفعول به (متلقياً)، أو لأنه يتعلق بذاته، فهذا عمل القارئ و دوره التفسيري، ف "أنا" تخاطب "أنت" القارئ المسئول عن التفسير و الفهم، و يجمع بينهما إرث لغوى مشترك وتفاعل و استجابة، ذلك أن المعنى المفهوم من النص عبارة عن حدث (An event) نتيجة الانصهار و الاندماج بين النص و القارئ، و أنه لا توجد معان ثابتة للنص، و هذه هي القراءة الحرة المنطلقة إلى المستقبل و المنتجة للنص في زمن قراءته، و قد تناولت هذا قبل في المذهب الهرمني، و بينت علل بطلانه علمياً.

وقد حاول جدامير حل مسألة الحلقة التفسيرية عند هايدجر، فلم يركز على الصلة بين الأجزاء و الكل حسبما هو في التفسير الشليرماخري، بل على دراسة العلاقات المتبادلة بين ما قبل الإدراك المعرفي و الإدراك الانعكاسي، و رفض الأغراض المنهجية التي تهدف إلى نفس "الحلقة التفسيرية"، و خالف هايدجر الفلاسفة ذوى التوجهات الوضعية الذين طالبوا بنزع المقدمات (ما قبل الإدراك) عن المعرفة؛ للتححر في الحكم على النص، و رأوا أنه عملية أساسية و ضرورية و هامة في المعرفة^(٣٤)، و قد رأى جدامير أن القارئ لا يستطيع أن يتخلص من كل خلفياته و تراثه، و لن يستطيع أن ينقى وعيه إلى درجة الصفر، و هو يفسر النص، فلن ينقطع عن تجاربه و معرفته السابقة، و أطلق على هذا "الإدراك الانعكاسي" الذي يعكس فيه على النص خبرته و وعيه، و قد يدفع هذا القارئ إلى أن يتخذ موقفاً من النص، فيفسره وفق سياق خبرته السابقة، و قد رأى أن القراءة تختلف باختلاف التاريخ و المحيط، و أنه يستحيل استرجاع سياق النص التاريخي في الزمن اللاحق، و يصل من هذا إلى أنه لا توجد

^(٣٤) ارجع إلى: التحليل النفسي والفلسفة الغربية المعاصرة، سيجموند فرويد، ترجمة د. زياد الملا، دار الطليعة

الجديدة، سوريا، دمشق ط ١٩٩٧، ص ١٧٧

قراءة واحدة، أو قصد واحد، و لكن هيرش خالفه، و رأى أنه من الممكن التعرف على قصد المتكلم في حالة استدعاء ظروف إنتاج النص الحقيقية^(٣٥).

نقد المذهب البراجماتي:

- أ . أن الغالب عليه الفلسفة، و ليس البحث العلمي، و لهذا تنازعت اتجاهات فلسفية، و كل واحدة تدعيه لنفسها.
- ب . أنه قسيم حقول معرفية مختلفة، فهو فلسفي و اقتصادي و رياضي و سياسي و لساني و بلاغي و نقدي، و مفتوح للاتجاهات العملية، و ليست هنالك فواصل بينها.
- ج . أنه مثار نقد في تنظيره و تطبيقه، فمازال في مرحلة النضج و التطوير و التنظير و التطبيق، و مازال قابلاً للزيادة و التبديل و التصويب.
- د . أنه ليس لها منهج واضح أو مجال بحثي محدد، فهو يتداخل مع العلوم التي تفاعل معها و تأثر بها، فهو فلسفة أكثر منه مذهباً بحثياً، فهو لا يمثل مذهباً بحثياً مستقلاً،

^(٣٥) لقد تبنى هانز جورج جادامير تلميذ وليم هيدجر فلسفة أستاذه، وصاغ منها نظرية في التفسير النصي، و تناول رؤيته في كتابه "الحقيقة و المنهج" الصادر في عام ١٩٦٢م، و قد ترجم إلى الإنجليزية في عام ١٩٧٥م، و الهرمية أو التأويل عند جادامير ليس محاولة لتأسيس معايير للتفسير السليم، بل هو محاولة لوصف الكيفية التي ننجح بها في فهم النص، و قد رأى أن البحث عن معنى النص الثابت والمحدد قد صار سراباً و وهماً؛ لأن معنى النص يصمم بشكل مشترك من كل من الظروف الآتية المعينة و الأفق الشخصي (personal horizon) للقارئ الفرد، و من ثم لن يكون ممكناً أن يتحقق تفسير صحيح واحد؛ لأنه لا يوجد معنى واحد دائم، فمعناه الآن الذي أراه خاص بي، وهو غير الذي يراه غيري في المستقبل، و من ثم توجد فجوة بين معنى النص الآن و بعد حين، فالجانب التاريخ متغير عن الجانب الشخصي للمؤلف في النص، و كذلك المتلقي، و يتحقق، ويستحيل استرجاع ظروف إنتاج النص، ليفهم فهماً يتسق مع رؤية المؤلف، و قد خالفه هيرش، فرأى أن القارئ يمكن أن يفهم قصد القائل إن استطاع إعادة بناء الشروط اللسانية و الأدبية و الثقافية للمؤلف التي تمكنه من أن يحدد المعنى اللفظي الذي لا يعروه تغيير عما أريد به في الماضي، وهذه الرؤية تتسق مع ما اصطلاح عليه علماء التفسير القرآني المسلمون الذين اعتبروا السياق اللغوي و المقام الخارجي المتعلق بأسباب النزول في التفسير، و أن المقاصد لم تختلف عندهم، بل وجوه التفسير. ارجع إلى: تأويل الخطاب الديني بين السلف و الهرمنة، ص ١٥ فما بعدها.

بل يتنازعه علم اللسان و البلاغة و النقد و الفلسفة و الرياضيات و علوم أخرى، و يعد هذا التداخل و التنوع سببين رئيسين فى عدم وضوح مذهبها التحليلية و معاييرها البحثية.

هـ . أنه ليس له معايير تحليلية واضحة يمكن تعميمها في كل بحث، فقد سلك أتباعه مذاهب متنوعة في التحليل منبعثة من رؤيتهم الخاصة و قناعتهم الشخصية بها و تأثرهم بمذاهبهم الفلسفية، و من ثم ليس له معالم واضحة فى التحليل.

و . أنه لا يحظى بمساحة بحثية واسعة فى علم اللسان، فاللسانيون يتعصبون للأصول اللغوية في البحث أكثر من الأفكار البراجماتية التي تتسع لمحاور نظرية و جدلية، بيد أن بعض الدراسات المتأخرة اتجهت إلى تأسيس علم اللسان البراجماتي بمعايير ثابتة؛ و هذا ممتع؛ لأن البراجماتية فلسفة أو أفكار لا تحتويها المعايير العلمية.

ز . أن بعض باحثي اللسانيات رفضوها في البحث اللساني؛ لأنها تهتم بما هو خارج اللغة أكثر من عنايتها بها، و قد عدها بعض النقاد "صندوق القمامة" للسانيات حيث يرمى فيها كل ما لا يمكن دراسته ضمن مستويات علم اللغة الرئيسية (الأصوات و الصرف و النحو و الدلالة).

ح . أنها تفتقد إلى القواعد العامة و المبادئ التي تعين أسسها، و أن ما تطرحه من مبادئ لا تضع تصوراً دقيقاً للتفسير البراجماتي، و أن الأسس العامة للسياق لا تكفى فى تفسير كل السياقات و أنماط الخطاب.

ي . أنه عند من يعده فى علم اللسان . أهمل بعض العناصر اللغوية الأساسية، ففقد استبعاد العناصر الصوتية و الصرفية و القواعدية من بحثه لانشغاله بما هو خارج البنية اللغوية، و أنه لم يعالج الأخطاء اللغوية و النحوية، و أنه لم يعتد بالوضع اللغوي للفظ، و اهتم فقط بالمعنى الثانوى، و تجاوز المعنى المباشر للتركيب، و لم

يعتمده أساساً في مقابل توسعه في الاستعمال اللغوي و علاقة اللغة بالسياق الخارجي و المعانى التى تتحقق من خلاله.

- أنه اختزل اللغة في مقام الاستعمال الواقعي، و قد جعله موضوع بحثه، ولم يهتم بالمعاني الباطنية و أثرها النفسي.

- أنه لم يهتم بالقواعد و دراسة المعنى النحوي و الأسلوبي، و لم يعتد بأشكال التعبير غير اللغوية^(٣٦).

- أنه وقع فريسة المذاهب الفلسفية التي صرفته عن بحث العناصر اللغوية الأساسية.

- أنه اختزل مقاصد التواصل في الهدف الحسي، فهو مذهب مادي تأثر بالفلسفة البرجماتية التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر عند جون ديوي و ويليام جيمس اللذين رأيا أن الحقيقة تكمن في طابعها المنفعي و المصلحي.

- أنه اهتم بالمقام التواصل و متعلقاته أكثر من اهتمامه بالبنية اللغوية و المعنى.

- أن مفاهيمه الأساسية غير واضحة، و أبرزها مفهوم البراجماتية نفسه، فقد تحرى العرب له ترجمة لطيفة غير التي يثيرها مفهومه في الوعي الفلسفي، فقد ترجموه بالذرائعية، و التداولية، و الوظيفية، و الاستعمالية، و التخاطبية، و النفعية، و التبادلية، و علم التخاطب . و هو أبعدا . و أشدها بعداً و نكراناً "علم المقاصد"، و تجاهلوا النفعية و المنفعة التواصلية و النهائية.

٣٦ (لقد عالج ابن جنى وعبد القاهر الجرجاني علاقة النحو بالمعنى فى الخصائص ٣/٣٣١، و دلائل الإعجاز، ص ٨١ وما بعدها، وتناول ابن مالك هذا فى صدر ألفيته فى تعريف الكلام بأنه اللفظ المفيد، وبينه شارحو الألفية، و قد تناول محمود عكاشة هذا فى التحليل اللغوى فى ضوء علم الدلالة، دار النشر للجامعات، ٢٠٠٥م ص ١٩ وما بعدها.

البراجماتيون العرب (التداوليون):

يرجع ظهور البرجماتية في البحث العربي إلى النصف الأول من القرن العشرين عندما ترجمت بعض أعمال الفيلسوف وليم جيمز إلى العربية، و هذا في المجال الفلسفي، و قد ظهرت إرهاباتها اللسانية في الستينات من القرن نفسه، و بلغت شهرتها في المجال البلاغي في الثمانينات، ثم ظهرت الترجمات اللغوية في التسعينات التي أدخلتها البحث اللغوي التطبيقي، و لكنها أكثر شهرة في البلاغة، و يرجع هذا إلى البحوث البلاغية التي كتبها المغاربة، و ذاعت في المكتبات العربية، فأقبل عليها طلاب التجديد في البلاغة، بينما تحفظ عليها اللسانيون^(٣٧).

لقد تأثر بهذا المذهب بعض الباحثين العرب بهذا المذهب في المفاهيم و التطبيق في مجالي اللغة و البلاغة اللذين تنازعا البراجماتية، فقد ترجموا بعض الدراسات و الكتب، و اجتهدوا في تطويعها للدرس العربي و تطبيقها، و كتبوا فيها، بيد أن التطبيقات يشوبها بعض اللبس و الضعف؛ لأن تطبيقهم غربي في المفهوم و المضمون، و ليس له معايير عامة في التطبيق، و لا يساوق عرف التعبير عن القصد في العربية، و لا يعبر تعبيراً دقيقاً عن العناصر البلاغية في الخطاب البلاغي، فقد عجز عن استيعاب الأبعاد البلاغية و القصدية في النص، و قد نشأت البلاغة في كنف العربية و في بيئة إسلامية غزتها بقيم تفتقد إليها البيئة الغربية التي تأثرت بالفلسفة الواقعية (المادية) ومناهج العلوم التجريبية و الفلسفة البنوية التي استحوذت على الدراسات اللسانية في القرن العشرين، فصارت شكلية لا تعدد بالمعاني أو قصد الخطاب، و قد تأثرت البلاغة الجديدة (الحجاج) في أوربا بهذه التيارات، فاهتمت بالعلل و الأسباب و الأدلة المادية الواقعية، و غلبت عليها الغائية و الجوانب الفلسفية

^(٣٧) ارجع إلى: البراجماتية اللسانية، محمود عكاشة، ص ١٨، و ٩٤ فما بعدها.

والمنطقية، و لم تكلف بالعناصر الجمالية و أثرها النفسى فى استجابة المتلقى و اقتناعه، و لم تعدد بالتذوق و القيم الفنية و الخصائص الأسلوبية الخاصة، و قد اهتمت بالخطابة السياسية، و تأثرت الدراسات الأسلوبية بهذا التيار الواقعى، فاتجهت نحو أسلوب النص دون سياقه الخارجى، و غالت فى هذا، و ظهرت دعوة موت المؤلف؛ لتقطع الصلة بين النص و قائله، و جعلت فهم المتلقى مرجع القصد، و هى الفكرة التى سيطرت على البراجماتيين الأوائل الذين توجهوا نحو استعمال اللسان فى سياق خطابى و فهم المتلقى دون قصد من وظف الخطاب فى التعبير عن قصده، و لم يعتدوا فى الجانب التأثيرى بغير ما يلاحظ على سلوك المتلقى من رد فعله و درجة استجابته، و الوجوه التى يحمل عليها استعمال الخطاب فى السياق و ما يتعلق به و ما يترتب عليه من أفعال، و اعتدوا فى الأفعال بالفعل الإنجازى فى الواقع، فالأحداث أفعال كلامية و إنجازات واقعية، و هم فى هذا متأثرون بالفلسفة البراجماتية التى حملت البراجماتية اللسانية (Linguistic Pragmatics) اسمها "Pragmatism"؛ لغلبتها عليها، فهذا المصطلح مخصوص بالفلسفة العملية النفعية أو الفوائدية، و جعلوا "Pragmatics" مخصوصاً بالبراجماتية اللسانية . أو التداولية اللسانية التى اشتهرت باسم التداولية، و اللفظان الأجنبيان من أصل واحد . و لم تجد البراجماتية الغربية بديلاً له، يعبر عنها؛ فتسمت به، و تعترف التداولية العربية بأنها امتداد البراجماتية اللسانية، و لم أعدل عن هذه التسمية الأصلية (Pragmatics) إلى ترجمتها؛ لأنها أدق فى التعبير عن دلالتها فى بيئتها بيد أن بعض الباحثين العرب اختاروا ترجمة "التداولية"، و التداول يعنى التفاعل بين طرفى الحوار، و البراجماتية تعدد بعملية التلقى لا بنية الخطاب و تزويده (إعداده فى النفس) و قائله و قصده؛ فالمتلقى مرجع معرفة القصد وليس القائل، و التداول لا يحمل هذا المفهوم، و آخرون استعاروا لها تسميات تراثية

ذات أبعاد إسلامية مثل "علم المقاصد" أو "المقاصدية" و "علم الذرائع" أو "الذرائعية" التي تعبر عن الذريعة أو السبب، و لهذه الاختيارات أثر سلبي في دلالة المفهوم الإسلامي الذي يحمل قيمة دينية و ثقافية من تراث الأمة، و ليست هذه التسميات العربية إلا قناعاً عربياً يستر مثالب الفلسفة البراجماتية النفعية في النظرية اللسانية، و الترجمات العربية لا تعبر عنها تعبيراً دقيقاً، و دليل هذا عدم اصطلاحهم على تسمية دقيقة لها، و أرى أن تبقى على لفظها الدخيل؛ لدلالاته على مفهومها الغربي الخالص، و ليس له مقابل دقيق يعبر عنه في الدراسات العربية، و هذا معمول به في نظير اللفظ من المصطلحات التي تحمل مفاهيم غربية مثل الرادكالية (Radicalism) والفاشية (fascism) و غيرهما من المصطلحات التي ترتبط بثقافتها غير العربية أو بأصحابها كالمكيافيلية و الماركسية، و من التعسف أن نطوع لها بديلاً عربياً و أن نفرضه على ثقافتنا، و لن يضر هذا بعربيّتنا، بل هذا علامة نبو هذه المفاهيم عن قيمنا و تراثنا، و أرى أن الذين استبقوا على تسميتها الأصلية (البراجماتية) مصيبون وكذلك الذين ترجموها بـ "النفعية"، و هو أصل معناها.

وقد انتشرت "التداولية"؛ لشيوعها في الترجمات و البحوث و المؤلفات؛ و لا سبيل لى في ردها بعد شيوعها، و هذا لا يغير من عدم اقتناعي بهذه الترجمات و عدم قبولى هذا المنهج بأبعاده البراجماتية النفعية أن يكون التصور الجديد لعلم اللسان العربى أو أن يكون بديل بلاغتنا العربية أو يكون الصورة الجديدة للبلاغة، فهو لا يمثل البلاغة العربية، و قد ظهر علم اللسان البراجماتي تأثراً بالبراجماتية و نظرية أفعال الكلام بيد أن ملامحه اللسانية لم تكتمل، و المكتوب فيه لا يعطى تصوراً واضحاً له، و لا أراه إلا امتداداً لتطور البراجماتية اللسانية، و ليس علماً لسانياً مستقلاً كعلم اللسان النصي أو الاجتماعي، و لا مانع من ترجمة هذه الدراسات إلى العربية

للمطالعة و البحث عن وجوه المنافع فيها، و غفر الله تعالى لزملائي الذين وقفوا جهودهم للعمل بها في العربية، و قد شغلتهم لحدائثها، و إن أرادوا بديلاً ناجعاً و مفيداً يقابلها، فعليهم بدراسة علم المقاصد عند علماء الأصول، فهو علم شاف واف، و يحتاج إلى من يعيد طرحه و تنظييمه في الدراسات اللغوية و البلاغية الحديثة؛ للاستفادة منه في تنظير معاصر يستوعب أنماط الخطاب المعاصرة و يحلها، و يكشف أبعادها اللغوية التواصلية والتأثيرية والإقناعية في التعبير عن القصد، و سيجد الباحث فيه مادة غنية بالأفكار، و سيجد فيه حلولاً و أجوبة يطلبها بحثنا المعاصر، و سيجد فيه مساحة متسعة للتجديد و الابتكار و الاجتهاد، لن يجدها في البراجماتية الغربية التي حصرت نفسها في دلالة الاستعمال اللغوي، و لا شك أنها أتت بجديد في الفكر الأوربي بيد أن كثيره إعادة اجترار لبعض أقوال الأصوليين في معرفة القصد و استنباط الحكم من النص الشرعي، و قد دفع هذا بعض الباحثين إلى تجذير أصولها في تراثنا تحت تسمية "التداولية عند الأصوليين"، و هو ما أطلق عليه عند الأصوليين "المقاصد" في بحث المقاصد الشرعية.

وقد أطلق بعض الباحثين "علم المقاصد" على البراجماتية مساواة بالمقاصد عند علماء الأصول، و هو تكلف ليس في موضعه؛ لأنه يضر بمفهوم المقاصد الأصل و غايته الحسنة في تأصيل المصالح النافعة و درء المفساد، فهو صادر عن أصول شرعية، و البراجماتية الغربية تقوم على تحصيل المنافع الدنيوية من كل الوجوه و بكل الوسائل التي تبررها دون تحفظ أو احتراز أو غاية شرعية، و المقاصد في صيغة الجمع مخصوص بالنص الشرعي؛ لما يحمله من وجوه المعنى ووجوه المنافع و المصالح الدينية و الدنيوية، فالخطاب الشرعي من لدن عزيز حكيم و محكم وحمّال مقاصد نافعة، و أرى أنه من الصواب أن يظل مصطلح المقاصد في صيغة الجمع قيد

النص الشرعي، و ألا يستخدم فى قصد الخطاب البشرى المحدود، و لا يجوز أن نستخدمه ترجمة للبراجماتية اللسانية التى تقوم على الفلسفة النفعية، و تتبنى اتجاهها لسانياً لا يستوعب عناصر اللغة الأساسية و معطيات الخطاب و عناصره الاتصالية، فقد اختزلت اللغة فى السياق التفاعلى (استعمال اللغة) أو السياق الخارجى (فهم المتلقى الخطاب ورد فعله القولى و الإنجازى)، و للباحثين أن يستخدموا مصطلح "القصد" و هو المصدر العام . للتعبير عن غرض الخطاب البشرى منعاً للتلبيس والتشويه.

البراجماتية البلاغية:

لقد اجتهد بعض الباحثين البراجماتيين العرب تأصيل البراجماتية فى البلاغة، و بذل بعضهم نشاطه البحثى للبحث فيها، و أنشأ لها صحيفة علمية (مجلة بحثية أو دورية)، و أقام لها مؤتمرات، و عرف بها فى المجال البحثى، و قد سمّاها أتباعها البلاغيون "التداولية البلاغية" و "التداولية العربية" يريدون مقاصد الخطاب فى التعبير، و زعموا أن عبد القاهر الجرجانى و حازم القرطاجنى من مؤسسى التداولية العربية، و أسقطوا بعض الأفكار البراجماتية البراجماتية على بعض التراث البلاغى؛ ليؤصل لها فى العربية، و لهذا الإسقاط أثر سىء فى تراثنا، فسوف يترتب عليه اتهام البلاغة بالضيق و العجز و أن مفسرى النصوص حرفيين، و الخطورة العظمى فى تطبيق هذا المنهج على النص القرآنى، فلسوف تحمل بعض المعانى على غير وجهها، و لسوف يقال إن المفسرين و الفقهاء لم يتوصلوا إلى مناهج صحيحة فى معرفة المقاصد و أحكام التشريع، و أن آراءهم فى المعنى و استنباط الحكم تحتاج مراجعة فى بعض النصوص . و قد قيل . و قد انتقد بعضهم البحث البلاغى بالتقصير و الضيق و العجز عن نظرية تداولية تكاملية، و تأسف بعضهم على تقصير البحث العربى فيها و عدم نهوضه بها، و بعض المؤلفات المغربية التى اشتعلت فى شيب البحث العربى

لفقت بين البراجماتية الغربية و عناصر البلاغة العربية، و عبثت بالأصول البلاغية التي اختلطت في أبحاث المقلدين، و بعضهم تماهى في تطبيق البراجماتية الغربية، و اتخذها بديل البلاغة، و هي من شواهد الفرسة التي لم تباغتتا في البحث العلمي المترهل ليس من فرنسا، بل من المغرب العربي، فأذعنا له طائعين تأخياً و عروبة، و نجح مخطط الغزو بالوكالة.

وقد عدها بعض المحدثين بديل علم اللسان مثلما عدوا الحجاج بديل البلاغة تأثراً بالغربيين أيضاً، و هذا تضيق مجالى اللسان و البلاغة العربية الواسعين، فالتداولية فى الحقيقة لا تستوعب إلا جزءاً يسيراً من اللسانية العربية، و ليست هذه الزوبعة حول التداولية و المبالغات فى قيمتها و وظائفها و مستقبلها إلا مثل الزوبعة التى أثارها الهُواس حول البنيوية التى زعموا أنها ذروة العقل و نضجة، ثم ما لبثت أن ذهبت جُفاء، و صارت كتب البنيوية و الدراسات التى تبنتها على الأرصفة يعافها القراء، و هذا مصير كل زبد لا يصدر عن مرجعية بشرية ذات قيم و ثوابت علمية، و هى أشبه بمن يسير على قدم واحدة؛ لأنها تبنت جانباً لغوياً، و أهملت جوانبه الأخرى، و هذا شأن الأفكار الغربية التى قامت على رؤية فردية ترى شيئاً و تجاهل أشياء، فهى لا تستوعب كل الجوانب اللسانية، و قد تأثرت بالفكر المادى الذى تأثرت به البنيوية قبلها بيد أنها اهتمت بوظائف الاستعمال اللغوى فى السياق الكلامى فى مقابل البنيوية التى اهتمت بشكل اللغة و نظامها العام القواعدى الذى يربط بين وحداتها اللفظية متجاهلة المعنى و تطوره و علاقة اللغة بالسياق الخارجى و أثره فيها، و هذا لا يمنع أن نعول على بعض الوسائل و العناصر الحديثة و بعض المناهج فى بحث مقاصد النص القرآنى، فالذى يأباه العقل و الإنصاف أن نحمل نصاً مرتبطاً بتنزيله على ما فى عصرنا، أو أن نقصيه عن قائله ﷺ، و نسقط عليه أفكارنا و أغراضنا، فنفسده.

التطبيق البراجماتي:

لقد لفق بعض الباحثين محاور تطبيقية مستفادة من التداخلات المذهبية في البرجماتية، فاهتموا بدراسة الوظيفية اللغوية و الاستعمال اللغوي المقامي المتعلق بالنص أو الخطاب، و درسوا العلاقة بين المتكلم و المخاطب، و درسوا وسائل الحجاج و الإقناع و أفعال الكلام داخل النص، و درسوا العلامات و علاقتها بمستعملها و مقام الاستعمال و المرجع و الإحالة، و البنيات الشكلية و الجمالية، و المقصدية الوظيفية و اللغة العادية و اللغة غير العادية (اللغة الشعرية، اللغة الروائية، و اللغة الدرامية)، و المقامية التواصلية (حضور الأنا و الأنت)،

وقد اهتم التداوليون بدراسة العناصر المقالية، و الانتقال من الحرفي إلى الإنجازي، وعناصر الحجاج في النصوص و الخطابات التي يكون هدفها الإقناع الذهني و التأثير العاطفي الوجداني، و درسوا السرد الإقناعي . عند جريماس . خاصة في مقام التطويع و التحفيز المبني على فعل الاعتقاد و فعل التأويل، و الكفاءة المبنية على منطق الجهات (وجود الفعل، و معرفة الفعل، و قدرة الفعل، و إرادة الفعل).

وقد اهتم التداوليون في اللغة بالمكونات الثلاثة التي طرحها شارل موريس: التركيب، والدلالة، والوظيفة، و بالمظاهر الثلاثة: المظهر الخطابي، و المظهر التواصلي، و المظهر الاجتماعي في ضوء الموقف التواصلية في اللغة الطبيعية، و ظهرت الاتجاهات التحليلية الآتية:

١ . التداولية النصية التي تعاملت مع الخطاب كلية عضوية متسقة و منسجمة، و عدته جملة نصية كبرى، تتعامل معها كالتعامل مع الجملة اللسانية، و قد تبناه إميل بنيفنست، وهاريس، ورومان جاكسون، و بعض السيميائيين، و منهم جريماس، و بعض التأويليين، و منهم بول ريكور .

ب . التداولية الجمالية التلقي التي تبناها ياكوس و آيزر، و الوظيفة الشاعرية أو الجمالية، ترسل عبر قناة وظيفتها الحفاظ على الاتصال، و يمكن الاستفادة من وظائف اللغة التي أرساها رومان جاكبسون (R.Jackobson)، منها الوظيفة الانفعالية التعبيرية، و هي تحدد العلائق الموجودة بين المرسل و الرسالة، و تحمل هذه الوظيفة في طياتها انفعالات ذاتية، و تتضمن قيما و مواقف عاطفية و مشاعر و إحساس يسقطها المتكلم على موضوع الخطاب المرجعي، والوظيفة التأثيرية التي تقوم بتحديد العلاقات الموجودة بين المتكلم و المتلقي، حيث يتم تحريض المتلقي، و إثارة انتباهه، و إيقاظه بالترغيب و الترهيب، و هذه الوظيفة ذاتية.

ج . التداولية التلغظية المقامية التي بحثت المعينات: أسماء الإشارة، و الضمائر، و أداة التعريف، و أدوات التملك، و الزمان، و المكان، و الصيغ العاطفية و الانفعالية، و أحكام التقويم، و قد تبناها أتباع موريس: بنيفينست، و لاينس، و أوريكشيوني.

د . تداولية أفعال الكلام التي تبناها أوستين و سيرل و جرايس الذين رأوا أن الفعل الكلامي يؤدي إلى تحويل وضع المتلقي، و تغيير نظام معتقداته، و تبديل مواقفه السلوكية.

هـ . التداولية الوظيفة التي تبناها فان ديك و هاليداي و رقية حسن.

و . التداولية المقصدية التي تدرس مقاصد الخطاب في الاستعمال المقامي.

ز . التداولية التحليلية التي تتناول عناصر التحليل الدالة على القصد.

ح . التداولية الحجاجية اللغوية التي تدرس وسائل الحجاج اللغوية و المنطقية و المقامية، و تذهب التداولية الحجاجية إلى أن النص أو الخطاب عبارة عن روابط لغوية حجاجية، و أشهر من تبناها أوزوالد دوكرو (Ducrot)، الذي أدخل البعد التداولي ضمن الوصف اللساني، و عده أحد مكوناته الرئيسة إلى جانب التركيب و

الدلالة.

ط . التداولية الإقناعية التي تدرس وسائل التأثير و الإقناع اللغوية و المقامية.

ي . التداولية الحوارية التي تدرس عناصر الحوار و وسائله و مقاصده.

وغيرها من الاتجاهات التحليلية التي تجسد التداخل بين المحاور اللغوية و البلاغية التداولية و النقد، و تعد هذه المحاور المستعارة من الفروع الأخرى عبئاً على الباحث و سبباً في عدم وجود معايير معلومة في التطبيق، فالباحث ينتخب منها ما شاء، و يدعيه منهجاً تطبيقياً، أو يزعم أن الدراسات الحديثة ألغت الحواجز بين العلوم عندما يخطئ في تطبيق المنهج، و تضطرب موضوعات بحثه و تختلط، و البحث العلمي له معالم منهجية واضحة.

مذهب تحليل أفعال الكلام :

ترجع فكرة "أفعال الكلام" أو " نظرية أفعال الكلام" (Theory of speech acts) إلى الفكرة التي طرحها أرسطو في الفصل الأول من كتابه "العبارة" الذي رأى فيه أن "كل جملة ذات دلالة....، لكن ليس كل جملة تقريرية إلا تلك التي فيها صدق أو كذب، و ليس هناك صدق أو كذب في كل الجمل، فالدعاء جملة، لكنها ليست صادقة و لا كاذبة"^(٣٨)، و قد بقيت آراء أرسطو معمولاً بها إلى القرن التاسع عشر، و كان أول من عارض آراءه هذه الفيلسوف توماس رايد الذي طرح فكرة "العمليات الاجتماعية" أو "الأفعال الاجتماعية" في مقابل "الأفعال الأحادية"(الفردية)، و يعد الفيلسوف الألماني

^{٣٨} النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، ترجمة محمد راضي، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢م، ص ٣٥٠، و قد تبنى أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) "التأويل" الأفلاطوني إلى نهايته المنطقية، و قد أطلق على كتابه المخصص للحديث عن "علم الدلالات و المنطق" اسم "بيرري أرمنياس" (Περὶ Ἑρμηνείας) (Peri Hermeneias) الذي حمل عنوان: "حول التفسير" (On Interpretation)، و قد ترجمه ابن سينا باسم: "العبارة"، و طبعته الهيئة المصرية للكتاب.

الظاهراتي أدولف رايناخ أول من طرح فكرة "أفعال الكلام"، و أول من درسوها دراسة علمية، فقد تناول الوعد و الطلب و الأمر تحت مسمى "الأفعال الاجتماعية"، و تناول هوسيرل "الأفعال التشيئية" التي بناها على طروحات سابقة، و أول من طرح فكرة "أفعال الكلام" بوهلر في كتابه "نظرية اللغة" (١٩٣٤م)، و قد رأى أن كل استعمال للغة يظهر حتماً واحدة من هذه الوظائف: التمثيل أو التعبير أو الإنشاء^(٣٩).

ويعد الفيلسوف جون أوستين (Jane Austen) (١٩١١ : ١٩٦٠م)^(٤٠) المؤسس الحقيقي لنظرية أفعال الكلام (Theory of speech acts) في اللسانيات الحديثة التي طرحها في محاضراته التي جمعها تلاميذه بُعيد وفاته في كتاب "كيف نعمل الأشياء بالكلمات"^(٤١). وهي النظرية التي وصفها الباحثون العرب بنظرية أفعال الكلام العامة. و قد جاءت فكرتها من عمله بالقضاء الإداري الذي يستخدم أفعالاً طلبية

^(٣٩) ارجع إلى: المقدمة التي كتبها عبد القادر قنيني، لترجمة نظرية أفعال الكلام، ص ٥، و التداولية و

اللسانيات، عادل الثامري، مجلة دروب، مقال في ١٩ / ٥ / ٢٠٠٦م.

^(٤٠) فيلسوف اللغة الإنجليزي جون لانجشاو أوستين أبو البراجماتية اللسانية الذي تأثر بفيلسوف اللغة المنطقي فتنجشتاين الذي يرى أن المعنى هو الاستعمال و قد تأثر أيضاً بمجال عمله في القضاء الإداري، و قد تبلورت نظريته في محاضراته الأخيرة التي ألقاها في جامعة هارفارد عام ١٩٥٥م، و هي التي جمعت في كتابه "How to do Things With Words" (كيف نعمل الأشياء بالكلمات) بعد وفاته ١٩٦٠م، و قد ترجم إلى العربية: "كيف ننجز الأشياء بالكلام" في المغرب، و قد عممه بعض الباحثين في التحليل، و هو يتناول دلالة القرار السيادي الملزم للمخاطب به كالقرار السياسي و القضائي.

^(٤١) ألقى أوستين عدداً من المحاضرات في أكسفورد بين عامي ١٩٥٢م و ١٩٥٤م، ثم ألقى اثنتي عشرة محاضرة في هارفارد في عام ١٩٥٥م، و قد جمعت هذه المحاضرات الأخيرة في كتاب بعد وفاة أوستين عام ١٩٦٠م، و نشرت بعد وفاته في كتاب عنوانه: How to do Things With Words، و ترجمه عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق. و هذه النظرية تشبه ما وقع لبنوية دي سوسير التي تعرف عليها الباحثون من المحاضرات التي جمعها تلاميذه، و نشرها بعد وفاته، فقد طرح أوستين رؤيته في المحاضرات، و من ثم نجد في الكتاب بعض الاضطراب و التكرار.

خاصة ثبوتاً أو نفيًا، و لها أثر مباشر إلزامي و رد فعل عملي، فاتخذ هذا النموذج مثلاً تطبيقياً، و عول في دراسته على روافد فلسفية فسر بها طبيعة هذه الأفعال و أثرها^(٤٢).

و قد تأثر في نظريته بكتاب "الخطابة" لأرسطو، و استدل بأمثلة من مجال القضاء الذي عمل به محرراً، و استخدم طريقة البرهان الخطابي المعمول به في القضاء الإداري، و من ثم يفسر الفعل الإنجازي و كيفية اتخاذه عنده في ضوء القانون الإداري

^(٤٢) لقد لاحظ أوستين أن هناك عبارات إذا نطقت بها تؤدي قولاً منجزاً، و يتحقق عنها فعل منجز في الوقت نفسه، كأن تقول لمن بشرك بمولود : سميتك محمداً ، فقد قلت قولاً منجزاً، و أنجزت فعلاً عينياً، و هو رد الفعل أو الأثر، ولكن هذا ليس مطرداً في كل الأفعال؛ لأنها ليست كلها من هذا النوع الذي يترتب عليه أثر خارجي، لذلك قسمها قسمين: أحدهما . الأفعال الإخبارية : التي تصف الواقع الخارجي ، و هي تنتم بالصدق أو الكذب . و الأخرى . الأفعال الأدائية التي تؤدي بواسطتها أفعالاً معينة، و لا يمكن وصفها بالصدق أو الكذب ، بل توصف بأنها موفقة أو غير موفقة، و منها الأفعال الدالة على : الاعتذار ، الوصية ، الوعد ، النصيح، و الشكر و التمني و النداء و الدعوة، و هذه الأفعال تحقق هذه الأغراض، وهي قيد الملائمة، و بعض الأفعال الإخبارية تتضمن أداءً ، مثل : جاء الغادر، يتضمن تحذيراً، و من ثم قسم الفعل باعتبار الأثر إلى: الفعل اللفظي : المتألف من أصوات لغوية ضمن تركيب نحوي صحيح ينتج عنه المعنى الأصلي. و الفعل الإنجازي: ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي مع معناه الأصلي. و الفعل التأثيري : الأثر الذي يحدث عند السماع من خلال الفعل الإنجازي. و قسم أوستين الأفعال على أساس قوتها الإنجازية إلى خمسة أصناف: أولها . أفعال الأحكام: ما يمتثل في حكم يصدره قاضي أو نحوه.

ثانيها . أفعال القرارات: تتمثل في اتخاذ قرار بعينه ، كالتعيين ، والطرء ، والإذن.

ثالثها . أفعال التعهد: تتمثل في تعهد يقدمه المتكلم ، كالوعد ، والقسم ، والتعاقد.

رابعها . أفعال السلوك : كالاعتذار ، والشكر ، والتحدي .

خامسها . أفعال الإيضاح: الأفعال التي تستعمل لإيضاح وجهة نظر أو بيان رأي ما كالاغراض ، و التشكيك ، و الموافقة ، و الإنكار ، و النصوب ، و التخطفة. [ارجع إلى: نظرية أفعال الكلام، ترجمة قنيني، أفريقيا الشرق، ص ١١ و ما بعدها] و قد كتبت بحثاً أرد فيه على عيوبها، و كتبت نظرية أحداث التكلم رداً عليها، و قد تناولت بعض قضاياها في كتابي تحليل الخطاب (ط دار النشر للجامعات).

كحديثه عن قرار الحرب و عقد العقود كعقود البيع و الشراء و الزواج، و من ثم قامت نظريته على الأساليب الإنشائية و الجمل التي تدل على الطلب، و هذه النظرية تقترب كثيراً من مفهوم الإنشاء في العربية و دلالة "فعل الأمر" عند الأصوليين. و الإنشاء عنده: إخراج الأشياء من العدم إلى حيز الوجود بأفعال لغوية طلبية قيد أوضاع و مواقف.

وقد تناول أوستين "أفعال الكلام" في مجموعة من محاضراته التي جمعها تلاميذه بعد وفاته في كتاب "نظرية أفعال الكلام"، و قد تأثر في نظريته بعمله في القضاء الإداري الذي يستخدم أفعالاً أدائية (طلبية) تدل على أغراض مختلفة، و تعبر عن أقوال ننجزها في التواصل؛ لتحقيق أثراً أو رد فعل، و هذا النوع تعبر عنه الأفعال الطلبية أو الإنشائية، و قد تعبر عنه الجمل الخبرية التي تدل على معنى طلبية، نحو: وقت العمل انتهى، أي: أسرع أو اخرج، و الأحداث: لفظة منجزة أو فعلية منجزة (العمل).

والفعل الإنجازي عند أوستين: "ما نقوم به خلال كلامنا"، أي: الآثار الناتجة عن المنجز الكلامي أو ما يترتب على القول الطلبية المباشر أو غير المباشر من أثر واقعي أو رد الفعل الخارجي، أي: ارتباط الكلام أو القول بالحدث الواقعي الذي يعبر عنه مباشرة، و هو يخالف الفهم المجرد لهذا الكلام و القضايا المنطقية المجردة، و قد ربط فان دايك مفهوم الفعل الإنجازي الأدائي بمفهوم الحدث، و عرف الفعل بأنه: كلّ حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني.

والحدث (act) له معنيان: أحدهما لغوي، تعبر عنه اللغة، و الآخر الفعل المنجز، و قد أراد به أوستين الفعل المتحقق من فعل التلفظ، و هو الحدث الفعلي في العالم (رد الفعل أو الأداء و الأثر المترتب على قول)، يقال أيضاً: الفعل الخارجي أو

العمل الحسي و الكينونة و التشيؤ (Doing) و الوجود، و هذا يؤكد لنا أنه استهدف الأفعال التي تحقق غاية عملية في الواقع، و أنه عم حدوث آثار عملية لها أو استجابة إيجابية مباشرة لا تتفك عنها، و لا تنمرد على الفعل، و أن الاستجابة السريعة لازمة، و أنها قد تكون على التراخي لطبيعة الفعل أو لموانع ترجئ الحدوث إلى زمنه ومكانه المهيأ لحدوثه، و لعل اختزاله الحدوث في الفعل العملي دون الحدوث النفسي الباطني و الاستجابة الإيجابية الجبرية المتوقعة من طبيعة الحكم القضائي الملزم بأثر فعلي أو عمل نافذ، و ليس معنياً بأفعال المعاني (الدالة على البواطن) و آثارها الباطنية، بل العملية و السلوكية.

ومن شروط إنجاز الأفعال . في النظرية . اقتضاؤها الشروط التي تضبط دلالتها و الأحوال الذهنية السابقة، و هي تقوم على القصد؛ لأن حصول الأفعال المنجزة تعبيراً عن القصد هو ما يجعلها منجزة، و هي تمثل الغرض البراجماتي (التداولي) الذي يتحقق من استعمال اللغة في علاقة العلامات اللغوية بمستخدميها، فالبراجماتية تمنح هذه الأفعال إطاراً تواصلياً ضمن بنية خطابية قابلة للتأويل؛ و هو ما يسمى بتأويل العبارات البراجماتي، و قد وضع أوستين المفهوم اللغوي لهذا النوع من الخطاب باعتبارها عملاً لغوياً، و قد ميز فيه بين ثلاثة مكونات:

أولها . العمل القولي (الإنجاز الكلامي): أن نقول شيئاً، و هو المنطوق القولي.

والثاني . العمل المتضمن في القول (المعنى الطلبي): العمل الطلبي الضمني، و يتضمن قولاً بالإثبات أو النفي أو التمني أو معنى طلبياً.

والثالث . أثر العمل الكلامي الفعلي: العمل المتحقق نتيجة قولنا، أو رد الفعل الواقعي، نحو: تحقيق فعل معين أو الأثر السلوكي (إيجاد حالات الخوف أو الإقناع أو حمل المخاطب على سلوك معين). و قد رأى جون سيرل تلميذ أوستين من بعده "أن إنجاز

هذا العمل يتم من خلال أعمال فرعية، و هي: التلفظ، و الإحالة، و الإثبات، و التأثير، و سوف أبينها لاحقاً.

ولقد فرق أوستين بين نوعين من الكلام، أولهما . ما يحكم عليه بالصدق أو الكذب، والآخر . ما لا يمكن الحكم عليه، فعندما نتقوه بالملفوظات لا نقوم بالإخبار، فبعض الملفوظات لا يمكن الحكم على أنها خطأ أو صواب، و هو هنا يستعير مفاهيم المناطق في الحكم على الجملة أو استحالة الحكم، و هما الجملة الخبرية و الإنشائية عند النحاة، و الحكم على صحة الجملة لغوياً موضوع نحوي، و الحكم بالتصديق أو انتقائه موضوع منطقي.

وقد فرق بين القول و العمل، فإننا نقوم بإنجاز بعض الأفعال بالألفاظ، فالتقوه بالملفوظات فعل في ذاته، و أثره خارج اللغة فعل وظيفي آخر، كقول المتكلم: "إني أعذر عن التأخير"، فهو إلى جانب فعل التقوه قد قام بفعل الاعتذار، فالتقوه ببعض العبارات ينتج عنه عقد البيع أو التهديد أو الاعتذار أو الشكر ...، و توجد جمل أخرى في شكل خبري تحتل الإنشاء في مقامها، و من ثم لا يحكم بصوابها أو خطئها و الأفعال المستعملة في هذه الجمل تسمى الأفعال الإنجازية أيضاً، مثل: أعذر، أشكر، أصادق، أقبل، أطلب^(٤٣).

والأفعال عند أوستين نوعان: أحدهما . الأفعال الإخبارية التي تصف الوقائع، و يقضى فيها بالصدق و الكذب، مثل: تتحى فلان عن منصبه. صادقة لوصفها حادث متحقق، و تكون كاذبة لمجيئها على غير وصف الواقع^(٤٤)، و هي الواقعة عند

^{٤٣} (ارجع إلى: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون أوستين، ص ١٢ و ما بعدها.

^{٤٤} (النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، ص ٣٥٥، لقد ميز أوستين بين الملفوظات التي تصف وضعاً، نحو: السماء زرقاء، و الملفوظات الإنجازية التي تسمح

المناطق.

والآخر . الأفعال الأدائية^(٤٥) التي تعبر عن معاني طلبية، و لا يمكن سُمها بصدق أو كذب في الحكم، و منها : الأمر، و النداء، و التمني، و قد جعل منها أوستين: الاعتذار ، الوصية ، الوعد ، النصح، و هذه الأفعال في الجملة العربية تفيد الخبر، و يترتب عليها أثر القبول أو الرفض، وهي باعتبار نطق الفعل اللغوي منجز قولي.

وهو لم يفرق بين أثر الفعل الملزم: كأفعال العقود التي يترتب عليها الوقوع كبعثتك و زوجتك، و الأثر المتراخي الذي يقع لاحقاً في غير زمان القول و مكانه، و الأثر المحتمل المترتب على الأفعال المسوفة التي تحتل الحدود و الأفعال الطلبية كالأمر الذي يحتمل القبول و الرفض، و الوعد الذي يحتمل الإنجاز، و التمني المستحيل، و الجمل الخبرية التي تحتل معاني إنشائية^(٤٦).

و قد قسم أوستين الأفعال باعتبار التلفظ و الحدود تقسيماً ثلاثياً مشابهاً أنواع الفعل السابقة: إلى ما يأتي:

١ . الفعل اللفظي (Locutionary act): المتألف من أصوات لغوية ضمن تركيب نحوي صحيح يعبر عن المعنى الأصلي.

ب . الفعل الإنجازي أو الفعل غير اللفظي (illocutionary act) : الفعل الذي يقصده

بإنجاز فعل ما، نحو: أعدك بحل المشكل. الأولى تكون صادقة وفق ما تصفه، و الأخرى تعبر عن التزام حسب رؤية أوستين. و لا يقضى فيها بصدق أو كذب.

^{٤٥} (النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ماري آن بافو و جورج إليا سرفاتي، ٢٠١٢م،

ص ٣٥٥

^{٤٦} (تحليل الخطاب في ضوء أحداث اللغة، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ٢٠١٤م، ص ٧٢

وما بعدها.

المتكلم بالجملة، كطلب وجوب فعل الأمر أو النصيحة.

ج . الفعل التأثيري (perlocutionary act): الأثر المترتب على القول الذي يحدث عند السامع من خلال الفعل الإنجازي، كطاعة الأمر، أو الاقتناع بالنصيحة، أو تصديق المتكلم أو تكذيبه^(٤٧).

وقد بينها أوستين بأمثلة منها: قال صاحب المطعم: "سيغلق المطعم بعد ربيع الساعة"، أنجز فعلاً لفظياً منطوقاً أو مكتوباً، و هو فعل نطق الكلمات، و قد أنجز فعلاً آخر ضمنيّاً، هو حث الزبائن على طلب ما يريدون قبل الإغلاق، و يترتب على هذا رد فعل المتلقي الذي يتمثل في استدعاء العامل بالقول: انت، أقدم، هات، و يعين الطلب بالقول، أو أن يعبر عن طلبه بالحركة و الإشارة و الرمز (الفعل غير اللغوي، و يستخدم المتكلم فيه تعبيرات يستوعبها متلقيها)^(٤٨).

وهناك تسميات أخرى كالتلفظ و قوة فعل الكلام (إعادة اللغة الأشياء إلى ما كانت عليه بعد أن تحولت إلى رموز تعبر عنها)، و لازم فعل الخطاب (مقاصد المتكلم المفهومة من السياق، أي: المعاني المنحقة من السياقات)، و قد أراد أوستين أننا ننجز أشياء باللغة، فالطاولة كانت شجرة لها تاريخ، و لا يجب اعتبار ما صارت إليه فقط بل ما كانت عليه، و اللغة كذلك تتجزأ أشياء بمجرد إنجازها تلفظاً، نحو قولك: بعتك و زوجتك: وقع البيع و التزويج.

وتقسم الجمل الإنجازية وفق التوصيف الذي اقترحه أوستين إلى جمل إنجازية ظاهرة و جمل إنجازية ضمنية، فالنوع الأول الجمل التي يظهر فيها الفعل الإنجازي، مثل: "أعدك بالحضور". و الجملة الإنجازية ترادف الإنشائية أو الإنشاء

^(٤٧) (ارجع إلى: نظرية أفعال الكلام، ص ١٢ و ما بعدها، و ص ١٣٨، و ارجع إلى: ص ١٨، ص ٦٠

^(٤٨) (نظرية أفعال الكلام العامة، ص ١٢٤

(Performative) عند أوستين، فهي في صورتها الطلبية فعل لغوي و في الواقع أثر منجز^(٤٩). و النوع الثاني الجمل الخبرية التي تحتل الإنشاء، الجمل التي لا تظهر فيها الأفعال الإنجازية كالجمل الدالة على العقود كأبيع و أتزوج، و أسلوب الوعيد و التهديد مثل: "أعلن الحرب"، و"أخرج من الغرفة!" حيث لا يظهر الفعل الإنجازي "أطلب" فيهما، ومثل: "هناك مرض معد في المدينة"، قد تكون هذه الجملة تحذيراً، و قد تكون إخباراً فقط. و قد أطلق أوستين على أفعال الكلام التي يمكن أن تؤدي بصيغ أخرى غير الصيغة الأساسية للمفوضات الإنجازية اسم "الأفعال الالفاظية"، و هي في الحقيقة مستوى من مستويات فعل الكلام الذي ينجزه المرء عقب النطق بالجملة، و هذا يعني أن أفعال الكلام ليست مجرد إصدار أصوات، و هو يريد بهذا بعض أشكال الجمل الخبرية التي تعبر عن المعنى الإنشائي.

وقد رأى بعض النقاد أن أوستين أخذ أفكار نظريته ممن تقدموه، و أنه تأثر بفتجنشتاين^(٥٠) الذي رأى أن اللغة العادية معيار صحة أو بطلان ما نقوله . و رأوا أيضاً أن مفهومي التلطف (Enunciation) و فعل قوة التلطف (Effective of Enunciation : action) أخذهما من مفهومي فتجنشتاين "Sentence Radical" و "Modal Element"^(٥١).

^(٤٩) نظرية أفعال الكلام العامة، ص ١٧

^(٥٠) ارجع إلى: بحوث فلسفية، تأليف لودفيج فتجنشتاين، ترجمة د. عزمي إسلام، موقع فلاسفة العرب، و مفهوم الفلسفة في نظر فتجنشتاين، و ليد عطاري، مجلة المنارة، المجلد ١٣، العدد ٢٠٠٦، م١، ص ٣٠٦ م و ما بعدها.

Wittgenstein, L. Philosophical Investigations,

Oxford, 1953

^(٥١) التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، الدكتور صلاح إسماعيل، مكتبة بستان المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٩٣م، ص ٢٤، "Sentence Radical" و "Modal Element": الجملة الأصلية و النمط المعياري.

• أنواع الأفعال الإنجازية باعتبار المعنى عند أوستين^(٥٢):

أ . أفعال الأحكام: تتمثل في حكم يصدره قاضٍ أو نحوه: يفرج عن، يبرئ، يخلو سبيل، يعفو.

ب . أفعال القرارات أو التنفيذ: تتمثل في اتخاذ قرار كالتعيين و الفصل، و المنح و السلب، والإذن و المنع، و أفعالها: أعين، أقرر، أثبت، أفصل، أجز، أسمح، أعفو، أوجب، و منها القرار الشخصي: تتحى، استقال، تنازل.

ج . أفعال التعهد: تتمثل في تعهد يقدمه المتكلم ، كالوعد ، والقسم ، والتعاقد.

د . أفعال السلوك: الاعتذار، و الشكر، و الترحيب.

هـ . أفعال الإيضاح: الأفعال التي تستعمل لإيضاح وجهة النظر أو تبين الرأي، أو الاعتراض، والتشكيك، والموافقة، والإنكار، والتصويب، والتخطئة^(٥٣).

و قد تأثر في هذا التقسيم بالقضاء، و استخدم مفاهيمه و مفرداته أيضاً، و اختزل دلالة أفعال في قرارات القضاء و تصنيفها و درجاتها.

ويتبين من هذا أن أوستين رأى أن الذي يجعل الأمر أمراً و الإلزام إلزاماً في الاستعمال اللغوي التطفلي الموقف الكلي الذي يستعمل فيه الكلام، و أن الموقف الكلي يتألف من الحقائق ذات العلاقة بمقاصد المستعمل التي تحدد نوع الموقف مثل صدق

^{٥٢} (النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص ٣٦٠

^{٥٣}) أرى أن ما سماه فعلاً من الأفعال الطلبية كالاعتذار أو الشكر أو النداء ليس فعلاً بل تعبيراً عن فعل (الاعتذار أو الشكر أو النداء)، ففعل الاعتذار يقع أداء في الواقع بالحركة و الإشارة و التشخيص، فقد خلط بين دلالة الفعل اللغوي و الفعل الواقعي، فالأول (أعذر) تعبير عن الفعل الواقعي (كالانحناء و الانكسار و وضع النظر)، و كذلك الشكر يعبر عنه بالقول الدال أو فعل الحركة المتواضع على دلالتها عليها، و الصواب أن نفرق بين النوعين بلفظي القول و الفعل، و هذا يتطلب منها تعيين دلالة القول و الفعل في اللغة.

العلاقة القائمة بين المتكلم و السامع؛ ليكون الأول أمراً للآخر، و مثل قراءة المتكلم قصيدة أو اقتباسه من جريدة، أو أن يمثل في مسرحية، و قد رأى تلميذه جون سيرل (John Rogers Searle) (و: ١٩٣٢ بأمريكا) أن الاستعمال اللغوي يتحدد . اعتياداً أو تطفلاً . بموجب قصد المؤلف، فالذي يتكلم الإنجليزية سيكون قادراً على تأليف قصص، أو أن يمثل في مسرحيات، و أن يستخدم الأفعال بمقتضى غرضه^(٥٤). و قد رأى أوستين أن الإنجاز يختلف باختلاف المؤسسة التي يصدر عنها التلفظ أو وظيفة المتكلم، فالتلفظ القانوني غير السياسي، و التلفظ السياسي غير الاجتماعي و غير الديني^(٥٥).

• تطوير جون سيرل نظرية نظرية أفعال الكلام:

لقد قام جون سيرل بتلميذ أوستين بتطوير نظريته حيث أعاد النظر في التقسيم الثلاثي للفعل الكلامي، فجعل بدلاً من فعل التلفظ "فعل القول" الذي يعبر عن فعل القضية^(٥٦)، و قسم الأفعال على هذا النحو: أ . فعل القول. ب . فعل القضية (الفعل الخبري و فعل المرجعية). ج . الفعل الإنجازي. د . الفعل التأثيري.

و قد طور سيرل شروط الملاءمة عند أوستين، فجعلها محكومة بأربعة شروط: أولها . شروط المحتوى القضوي، و تتحقق بأن يكون للكلام معنى قضوي من خلال قضية تقوم على متحدث عنه أو مرجع، و متحدث به أو خبر، و يكون المحتوى القضوي المعنى الأصلي للقضية (و القضية عند المناطقة: الجملة الحملية المؤلفة من موضوع و محمول).

^{٥٤} (ارجع إلى: فلسفة العقل، دراسة في فلسفة سيرل، الدكتور صلاح إسماعيل، دار قباء الحديثة، القاهرة،

٢٠٠٧، ص ١٥٦

^{٥٥} (النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص ٣٥٦

^{٥٦} (النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص ٣٥٦

ثانيها . الشرط التمهيدي، و يتحقق إذا كان المتكلم قادراً، و لو بوجه من الوجوه على إنجاز الفعل .

ثالثها . شرط الإخلاص، و يتحقق حينما يكون المتكلم عازماً على أداء الفعل.

رابعها . الشرط الأساسي، و يتحقق حين يحاول المتكلم التأثير في السامع.

و قد غير سيرل تصنيف الأفعال الإنجازية، فجعلها خمسة :

الأول . الفعل الإخباري أو الإقاربي (Assertive)، و الغرض الإنجازي منه وصف واقعة معينة من خلال قضية، و يتميز بتوافق الملفوظ مع حالة العالم، و يتمثل عرضها الإخباري في نقل الوقائع، و تُدرج فيها كل الأفعال الدالة على التوضيح و الأحكام، و لذلك تحتل الصدق أو الكذب (و هي تضم الحكميات و الإيضاحات عند أوستين)، و منها ما يأتي:

١ . الأفعال التي تدل على الأحداث القائمة و تصف المشهد في الخطاب: يثور، يفسد، يخرب، يسقط، يقتل، يدمر، يعصف، أرى، أشاهد، أعين.

ب . الأفعال الشعورية: أحزن لما يحدث، أشعر بالأسى، أتألم مما أراه و أسمعه، أخاف على الوطن، و هي للاستعطاف و الاستقطاب، و لا يقصد بها التعبير عن المشاعر الوجدانية، بل غاية تأثيرية خارجية.

ج . أفعال التفسير المعبرة عن صاحبها: أوضح، أبين، أفسر، أشرح.

د . أفعال التقويم، و هي كثيرة: أقيم، أقدر، أعد، أرى، أحرم، أجرم، أعيب، أصحح، أغلط، أحاسب، أقيس، و هذا النوع يكشف عن معتقد المتكلم النفسي أنه مرجع التقويم و الحكم.

هـ . أفعال التعليل: يبرهن، يتسبب، يعلل، يربط، وهي للتبرير و التعليل، و توحى ببراءة الذمة مما ينسب إلى المتكلم. و أفعال الادعاء: أزعم، أدعي، أتوهم، أظن، يشيع، يفتن،

يفتري. وهي تدل على المزايدة و الإفراط في الادعاء.

الثاني . الفعل التوجيهي(Directives): إنجازه يتمثل في توجيه المتكلم المخاطب إلى فعل معين على وجه الوجوب أو الندب أو التخيير، و يقوم على الإرادة و الرغبة، و هدفه محاولة توجيه المخاطب إلى فعل سلوك ما في المستقبل، و يمثله في اللغة العربية: صيغ الاستفهام، الأمر، النهي، الرجاء، النصح، السؤال، يمثل هذا النوع الاستفهام الصريح و الضمني، نحو: كيف تطورت الأحداث؟ من المسئول؟ الغرض: طلب المعرفة (إزالة الجهل)، و التأثير. الخروج من الحيرة، إزالة الحيرة بالجواب. و الاستفهام لغير الطلب في معظمها، و غرضه الاستنكار و التعجب، و تأثيرها: الاستقطاب. و يبدي المتكلم آراءه أحياناً، و لذلك يستعمل الأمر: "فليعلم الجميع"، و غرضه و النصح و التحذير، و مثله: و ينبغي أن ...، و يجب أن....، و منها تغيير الاعتقاد بالتحذير، نحو: فليحذر الذين يتاجرون بالدين و مصالح وطنهم، و يجب أن نحذر من الإشاعات، و منها التوضيح (الإعلام): أبين، أوضح، أكشف، أبرهن. و الدعاء (الطلب و النصح)، "حفظ الله البلاد و المواطنين" الدعاء غرضه تمني حصول الصواب.

ومن الضرب الإنكاري: كيف نتقدم في ظل هذه الاضطرابات؟! و منها: الأمر، بالصيغة: افعل، أو بالمعنى المتضمن في القرار، نحو: أصدرت قراراً بـ ، و كلفت... بـ....، و قد يستخدم الأمر لمعاني أخرى، كالأمر الجماعي، نحو: " ينبغي أن نعلم....، ينبغي أن نحذر، و أن نتوخى جميع الأدلة....، ينبغي أن نأخذ الأمر على الجد...."، "يجب أن يلتزم الجميع"، و الأصل أن يوجه الأمر إلى المخاطبين، فيعدل المتكلم عن "أنتم" إلى "نحن" للتشريك و التودد تحبياً أو تصنعاً، و قد يعول المتكلم في الخطاب على الجوانب العاطفية و الأخلاقية و الدينية و الوطنية؛ لتؤثر في المتلقي استقطاباً و توجيهاً نحو قصد المتكلم و أهدافه.

الثالث . الفعل التعهدي (Commitment): إنجازه يتمثل في تعهد المتكلم على نفسه بفعل شيء في المستقبل، فهو بمنزلة النذر للخير و التعهد و الوعد للناس ... ، و الالتزاميات أو التعهديات لا تقوم على مبدأ التأثير، ذلك أنها متصلة بالمتكلم، و هي مؤسسة على القصد، يلتزم فيها المتكلم بدرجات متفاوتة بالقيام بأفعال مستقبلية عن قصد، نحو الأفعال الدالة على الاستقبال: أعد بما ألزمت به نفسي، وعدت بإصلاحات، عاهدت نفسي و عاهتكم أن، و منها الاستقبال: ستشعرون بالإصلاحات في حينها، سيتحسن الاقتصاد، اعتمد الخطاب على التسويق، للدلالة على الإنجاز المستقبلي، و هو بمثابة الوعد، و قد يكون ترحيلاً أو خداعاً.

الرابع . الفعل التعبيري (Expressive): إنجازه يتمثل في التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتوافر فيه القصد... ، و الغرض منه: التعبير عن مواقف نفسية، كالشكر، التهنية، التعزية، الاعتذار، التمني، الكره، الندم، الحزن، و الاستنكار، مثل السؤال الاستنكاري: لما يحدث هذا؟! يستنكر المتكلم الحدث، و التمني الفعل "أتمنى" الذي يعبر عن الباطن، و مثله: أحب أن أعرب عن تقديري، و ليت كذا يعود...، و أنفهم رغبتهم في....، و التقويم هنا ذاتي.

و لم يشر أوستين و سيرل إلى معايير الصدق و الكذب فيه، و أرى أن القاضي فيها المتكلم الذي يعلم ما في نفسه، و للمتلقي أن يقارن بين ما يصف به حاله و فعله الواقعي.

الخامس . الفعل الإعلاني أو التصريحي (Declarations): ما يطابق محتواه القضوي الواقع، و يحدث تغييراً في الواقع...^(٥٧)، و أبرز ما يميزه مطابقة المحتوى العالم، و

^(٥٧) أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الدكتور محمود أحمد نحلة، ص ٤٠ : ٨٤ . مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه و ديتر فيهفجر، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، ص ٦٣ - ٦٦.

هذا يعني أن هذا النوع يقوم على وضع غير لغوي (Code non linguistic)، و منه الإعلان عن صدور قرار و البيان الرسمي. و لم يتناول سيرل "الفعل العملي المقامي": المنجز في مقامه الخارجي الواقعي.

وقد رأى أوستين أن الاقتضاء يكون فيما مضى من الأفعال و أفعال الحال، و أرى أن الاقتضاء قد يتحقق مستقبلاً، فالاستقالة من المنصب الإداري مثلاً يقتضي أن المستقبل فقد صلاحية ممارسة العمل و إصدار القرار، و هذا شأن القرارات الرسمية التي يضرب للعمل بها موعداً مستقبلاً، و من ثم تتبع عبارة: يجري العمل بهذا بدءاً من.... و ينتهب في...، و منها الجمل الشرطية التي يترتب الجواب فيها على الشرط، نحو: إن تتحى الرئيس يتول آخر، خُلُو منصب الرئيس يقتضي تولي آخر؛ لئلا يبقى منصب الرئيس شاغراً.

والفعل المقامي يختلف عن أفعال الكلام عند أوستين، فالفعل المقامي العمل الواقعي في العالم أو الحدوث في الواقع، بيد أن الأفعال الكلامية المنجزة قد تكون قيد زمن الفعل اللغوي دون الواقع أو التلفظ الذي عده أوستين إنجازاً في القول^(٥٨)، و منها ما يشمل كل وحدات التواصل اللغوي القولية و الإنجازية التي تعبر عن الأفعال المنجزة، و الفعل القولى فيه كل أنماط الأفعال القولية (Actes de parole)، و هذا النوع ليس منقطعاً عن الإنجاز، بل المرحلة التي تسبقه، فالأفعال الطلبية التي يعبر عنها بلفظها الصريح أو بالمعنى تنشذ الأغراض الإنجازية (Acte illocutoire)، بقوة القول (Force illocutoire)، ففعل الأمر في زمن القول في العربية يطلب حدوث الفعل على وجه الإلزام أو الندب أو التخيير، أو يراد به الدعاء، و هو في صيغة الطلب "افعل"، و هذا يتطلب تفسيره في سياقه و مقامه، نحو: كفى عنفاً، كفى عنفاً. خرج عن دلالته

^(٥٨) (ارجع إلى: نظرية أفعال الكلام العامة، ص ١٤١

الاعتيادية (الوجوب) في مقام النصح و الرجاء، فالمتكلم ليس له سلطان على المخاطب يلزمه الفعل، فصار: كفوا عن العنف، للنصح و الرجاء. و الأمر لذي سلطان، نحو قول الرئيس: أمرته بكذا، أو أصدرت تعليماتي ب....، و أصدرت قراراً ب....، و منه الأمر بالمعنى: فرض و أوجب و قضى، و قد يتحقق الأمر بلام الأمر، و قد يفهم الطلب من المعنى الخبري نحو: الصلاة واجب ديني، أي: صل، و المذاكرة شرط النجاح: أي: ذاكر، و كذلك النهي لفظاً نحو: لا تفعل، و النهي بالمعنى نحو: حرم أو منع، أو بالتعبير الخبري: السرقة خطيئة دينية و جريمة قانونية، أي: لا تسرق، و هذا النوع وغيره من أنواع الجمل التي لا تحتتمل الصدق أو الكذب تعرف بالجمل الإنشائية.

وقد تناول أوستين دلالة الأفعال في الجملة الإنجليزية (الفاعل ثم الفعل)، و تابعه بعض الباحثين العرب، و الجملة الاسمية في العربية تعبر عن الحدث أيضاً، و هي أقوى في تأكيد الواقعة من الجملة الفعلية، نحو: الوطن حر، الشعب متحد، فالإخبار بالخبر الوصفي، يتضمن ضمير المبتدأ، و فيه معنى الفعل الدال على الحدث، و كذلك المصدر: الحاكم عدل، و يقدر الحدث في الخبر شبه الجملة، و هو دال على الحدث، نحو: الوطن فوق الجميع، و الخبر الجامد يؤول بمشتق، فلا يخبر عن الذات بالاسم الجامد إلا بتقدير معنى فيه وصف، فقولهم: مصر كنانة الإسلام (أي: كالكنانة) و درع الأمة (الوقاء و خط الدفاع)، و الشعب يد واحدة (أي: كاليد: بمعنى متحد)، و الجيش درع الوطن (يراد به القوة و المنعة، أي: الوقاء و الحماية)، و الوطن حصن الشعب (أي: الملاذ الآمن)، و مصر أم العرب (أي: كالأم لهم أو مشبهة الأم أو الجامعة الحانية)، و مثل: القائد صلب. (أي: قوي)، و كلكم مصر، أي: وطنيون، فالحدث في الجملة الاسمية مضمن في المحمول أو الخبر المسند، و ليس في المسند إليه، و من ثم يدل

الخبر على الوصف، و يقدر فيه الضمير كالفعل^(٥٩).

و قد نقد جرایس فكرة قصد المتكلم المضمن في خطابه، و رأى أن المتكلم يتجه نحو قصده دون تلفظ، و أن ما يقوله شيء آخر غير قصده، و أن المتلقي هو الذي يعين قصد المتكلم، فقال: "لماذا يقول القائل شيئاً . و هو يقصد ما يقوله؟ لكنه يريد أن يقول شيئاً آخر. و كيف يمكن للسامع أن يفهم العمل اللغوي غير المباشر في حين أن الجملة التي يسمعها تقول شيئاً آخر؟"، و من ثم نظر إلى البراجماتية على أنها تأويل قول المتكلم حسب فهم المتلقي المراد منه، و لم يعتد بمراد المتكلم نفسه؛ و قد ذهب بعض الغربيين هذا المذهب بدعوى أن بعض النصوص المجهولة لا نستطيع معرفة قائلها أو غايتهم من خطابهم، و قد تأثروا في هذا بالمذهب الوضعي و نظرية "موت المؤلف" الفاسدة.

وهذا قول مردود؛ فالمعاني التركيبية لها قرائن قواعدية و سياقية و عقلية تعرف بها، وليس معرفة القائل شرط تعيين القصد، فقولنا: العلم نور، لا يراد ظاهر المعنى، بل لازمه المجازي، و العقل قرينة المعنى المجازي هنا، و الجمل المعدول بها عن صريح لفظها في الخطاب المنطوق تفهم في ضوء مقامها، و ليس هذا النوع عاماً في اللغة، فالمجاز نوع من المعنى.

والمراد بالقصد هنا ما يحمله الخطاب الإخباري خبرياً أو إنشائياً، و ما يفعله المتكلم نفسه دون قصد الإخبار لا يتلفظ به، نحو: عزمه على الخروج أو الجلوس أو النوم و كل ما يتعلق بسلوكه الشخصي، و المراد بأفعال الكلام أفعال الخطاب الموجه التي تتضمن طلباً من المخاطب، و ليس بصحيح أن فهم القصد مطلق للمتلقي، فهو يتحرى

^(٥٩) ارجع إلى: شرح الجمل؛ ابن عصفور، ج١/ ٣٤٠، و شرح ابن عقيل، ج١/ ٢٠١، و همع الهوامع، السيوطي، ج١، ٩٣، و ما بعدها.

مراد المتكلم بضوابط خطابية و قرائن تؤكد أن ما فهمه قصد المتكلم، و هذا ليس مشكلاً في الخطاب اليومي الذي يستخدم المتكلم فيه لغة مباشرة و واضحة قيد مقامها، نحو: "قف" الذي يفهم في إطار علاقة المتكلم بالمتلقي في المقام، فهو يحتمل من غير هذه القرائن معاني: الطلب و النصيحة و التهديد، و قرينة المقام تعين واحداً.

نقد مذهب أفعال الكلام:

١. أن القواعد التي وضعها تمثل قرارات القطاع الإداري (القضاء الذي تأثر به أوستين)، و لا تطرد في كل المؤسسات و الحقول، و لا يلزم العمل بها في كل خطاب^(١٠)، لأنها اختزلت الواقع و التعبير عنه في الأفعال اللغوية، دون الجملة الخبرية. و الجملة الاسمية في اللغة العربية.
- ب. أنه أهمل وظائف السياق و المقام و عناصر التعبير الأخرى كالإشارة و الرمز و التعبيرات الجسمية و دلالة الهيئة في التعبير عن القصد.
- ج. أنه أهمل قرائن المعنى اللفظية و المقامية و العقلية، و هي أساس تعيين القصد، و القرائن مبحث في علم المقاصد عند علماء الأصول المسلمين، و قد جهلها البحث الغربي الحديث، بل أخرج المذهب البنويوي المعنى من البحث اللغوي، و المعنى محل القصد، و إنما وضعت الألفاظ أوعية خادمة له.
- د. أنه اختزلت الإنجاز التعبير في الشكل الإنشائي، و الأصل في التعبير عن الحدث الخبر بنوعيه الاسمي و الفعلي، فالتلفظ المفيد كله إنجاز قولي يعبر عن المعاني و الأعيان، و الغرض منه تحقيق المقاصد، و معيار التصديق علي الأعيان الإنجاز الواقعي، و يعبر عن العين بالملفوظ الاسمي و الفعلي خبراً أو إنشاء، نحو: زيد ناجح، و نجح زيد، و ما أحسن نجاح زيد!

^(١٠) (ارجع إلى: النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص ٣٦٢

هـ . أنه خالف العرف اللغوي في جعل الأساليب الإنشائية ساحة الإنجاز اللفظي و الواقعي، فقد اختزلت التعبير الإنجازي في الأساليب الإنشائية، و هي من صور التعبير عن المعاني الخاصة، و المشهور أن الإنجاز اللفظي عام في الملفوظ، و الإنجاز الواقعي فيما دل على حدوث الحدث في الواقع معنى و زمناً كدلالة الجملة الاسمية على الحدث الواقعي المنجز كقولنا: الرئيس تنحى، و منصب الرئيس شاغر، و دلالة الفعل الماضي على انقضاء معناه الواقعي كقولنا: تنحى الرئيس عن منصبه و استقال منه، و أعفي منه و أُقيل و خُلع، و ما دل عليه تعريضاً نحو: غادر البلاد سراً إلى جهة مجهولة، طلب حق اللجوء السياسي.

و . أنه اكتفى بالمقدمات و القضايا القانونية التي يترتب عليها أثر في الواقع، و لم يتناول دلالة أفعال اللغة في غير الطلب.

ز . أنه لا توجد فروق واضحة بين الحدث و الفعل في و الإنجاز، فقد سوى بين أداء الكلام و الفعل الواقعي في الإنجاز، و الصواب أن الكلام صورة المعنى و الفكرة الحسية، و ليس الكلام من جنس الفعل العملي في الواقع، بل سبب في حدوثه.

ح . أنه عول على فهم المتلقي القصد من الإنشاء، و القصد مرجعه القائل و قرائن قوله، و ليس المتلقي، و يفهم القصد من الخبر و الإنشاء تصريحاً و تعريضاً، و تعيينه يتطلب قرائن لغوية و مقامية و مقامية غير متوفرة في الجملة وحدها، و لا يمكن تعيين القصد في أفعال الكلام دون قرائن.

ط . أنه جعل رد الفعل العملي عنصراً أساساً في أثر كل القول، و أنه موضع التقييم عند حدوثه، و أنه اختزل رد الفعل في السلوك المباشر و الفعل العملي، و أهمل ردود الأفعال الأخرى، فرد الفعل قد يكون نفسياً غير ظاهر، و قد جعل أيضاً كل ردود الأفعال إيجابية، و أهمل السلبية، و قد جعلها مباشرة و سريعة، و أهمل غير المباشرة و

المنزخية.

ي . أن الدراسة فيه جزئية، و لا تطرد أحكامها إلا في نوع من الأفعال الرسمية الإلزامية.

ك . أنه اختزل المعاني و المقاصد في الأفعال؛ لتأثرها بالمادية، و المعلوم أن المعاني المفيدة التي تتضمن قصد المتكلم معاني الجمل أو الخطاب، و أن إدراك المعاني الحقيقة للمنطوق يتحقق في سياقات الاتصال الفعلية^(١١).

ل . أنه اهتم بالأفعال الإنشائية، و المعلوم أن الجمل القابلة للتصديق معاني الجمل الخبرية، و ليس الإنشائية، و هي التي تتضمن التعبير عن الإنجاز العملي و المعنى القطعي.

وقد استثمرت مقولات "الفعل الإنجازي" في علم اللغة النصي و في النقد الأدبي الحديث في الغرب منذ السبعينات، و قد عد بعض الباحثين الكلام الأدبي و غير الأدبي فعلاً لغوياً (Speech Act) يدل على قصد المتكلم، و قد توسع الباحثون العرب في استخدام هذه النظرية في البحث و التحليل، و قد غالى بعضهم فطبّقها على الخطاب القرآني، و أسقط مفاهيمها عليه.

^(١١) لقد تناولت أفعال الكلام في كتابي تحليل الخطاب و البراجماتية اللسانية.